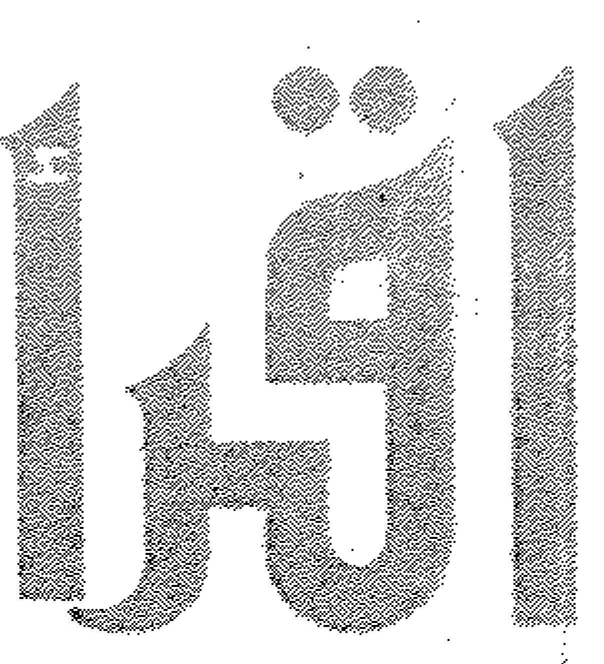


سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دكتور إبراهيم عيد

الموهبة والإبداع

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٥٩]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف: منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

دكتور / إبراهيم عيـــد

الموهبة والإبداع

دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا في شيء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها .

طه حسين

الإهداء

إلى أبنائى

ريم وعلى ورناد

على طريق الموهبة والإبداع.

مقدمة

يدور هذا الكتاب حول الإبداع بوصفه أعدل الأشياء قسمة بين البشر! فالناس يولدون وهم مزودون بقدرات عقلية متميزة، وبإمكانات تتواصل بغير انتهاء، وبمواهب شتى، وبخيال خصب، بيد أن هذه القدرات، وتلك المواهب وهذه الإمكانات تظل خبيئة طى النفس، تحتاج لمن يخرجها من حيز الكمون إلى حيز التحقق الخلّاق فى الواقع.

وهذا التحقق مشروط بنسق تعليمى متميز، يتجاوز حدود الحفظ والتلقين والاتباع واستظهار المعلومات، إلى الفهم والتأويل وإنتاج المعرفة والإبداع؛ وبيئة ثقافية محفزة على الإبداع، وإمكانات اقتصادية مهيئة للإبداع، ومساعدة على تفجير الطاقات الكامنة، ومجتمع يشجع على الإبداع ويقيم وزنا للموهبة والقدرة والإمكانية.

ولعل القاسم المشترك فى عالم الإنسان يكمن فى الإبداع، فالإبداع فينا، هو نحن، هو الإنسان بما هو إنسان، والاختلاف ليس فى جوهر الإبداع. ولكن فى درجته، التى لا تتحقق إلا من خلال الإيمان بأن الإنسان إمكانية مفتوحة تنطوى على وجود إنسانى يتجلى فى ثراء نفسى وعقلى ممتلئ، مفعم بالإمكانات والقدرات، وأن العقل الإنسانى واحد، ومن ثم فحضارة الإنسان واحدة، بيد أن ثقافاته متعددة.

والعقل قادر على الرحيل والسكن حيث تكون البيئة مخصبة للإبداع ومحفزة له، ولهذا تغيرت مواقع الحضارة من مكان إلى مكان، ومن موقع إلى آخر، تغيرًا لم يكن للفروق الجينية فيه أى دخل.

يقول ماينارد سميث: إن الفرق الجينى لم يكن مسئولا لا عن تفوق العرب فى الأبحاث العلمية بالمقارنة مع أوربا قبل ألف عام، ولا عن انقلاب هذا الوضع.

وفى عصر سمته الأساسية أنه عصر العلم والتكنولوجى، يصبح الإبداع مطلبا لا مناص منه، لمن أراد أن يجد لنفسه موقعًا متميزًا على خريطة عالم يتقدم من خلال وثبات علمية كيفية تتجاوز كل قدرة على التنبؤ.

والإبداع فى صميمه تجاوز للمألوف، وهذا التجاوز لا يتحقق إلا من خلال مسايرة التيارات الكوكبية التى تنشغل – فى كثير من الأحيان – بتعليم الطفل، باعتباره حجر الزاوية فى المجتمع الكوكبى الجديد، حيث الأطفال فيه هم قادة المستقبل فى إحداث التغيير المطلوب.

ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق تعليمه وتدريبه على إنتاج المعرفة، بدلاً من تدريبه على أن يكون مستهلكا للمعرفة.

وإنتاج المعرفة يحتاج إلى إطلاق العنان لخيال أطفالنا، وقد أصاب أنشتين عندما قال: (العلم ثمرة للخيال)، وما نظرية النسبية إلا نتاجًا لخيال خصب ممتلئ بالقدرة والإمكانية.

وعندما نسمح لأطفالنا بالدهشة، التى هى جوهر الإبداع، ولا نقهر فى داخلهم روح التساؤل، ولا نضع حدودًا لتعطشهم المعرفى، ولا نُحبط فى داخلهم أى نزوع صوب البحث والتنقيب والاستكشاف.

عندما نفعل ذلك، نكون قد بدأنا بوضع الجذور الجنينية لجيل بمقدوره أن يُحدث التغيير الإبداعى المطلوب.

ويحتاج الإبداع إلى مناخ علمى يقوم على التسامح، حيث تعدد الآراء أمر مشروع، فلا توجد إجابة واحدة صحيحة ومطلقة، ولا أنموذج فكرى راسخ لا يمكن تغييره، ولا تفكير قطعى صارم لا بديل عنه، فكل حجة لها حجة مضادة، وكل سؤال من الممكن أن يتحول إلى إشكالية تستلزم حلولاً متعددة.

ومن شأن ذلك، ضرورة إعادة النظر فى نظام الامتحانات الذى يقوم على الأنموذج الواحد، والرؤية الواحدة، والمعنى الواحد، وبقدر مسايرة التلميذ وخضوعه المطلق للمقرر الدراسى، يكون نجاحه وتفوقه.

فالتفوق عندنا معناه عدم الخروج عن النص، عن الإجابة الواحدة، ومعناه أيضا أن تكون مجموعة المتفوقين نسخة (كربونية) واحدة، بغير إضافة أو تجديد الأمر الذى أدى إلى تفشى الدروس الخصوصية على نحو غير مسبوق.

ولعل ذلك من الأسباب التى أدت إلى إقامة المؤتمر القومى للموهوبين، تحت رعاية السيدة سوزان مبارك، قرينة السيد رئيس الجمهورية،

والذى يمثل وعيًا قوميًا بأن الإبداع هـو الحـل لتحديـات القـرن الحـادى العشرين، وأن الموهبة تفرد في الإمكانات الإنسانية تستوجب الحـرص والعناية، وأن السعى لتوفير الفرص والإمكانات والمناخ الاجتماعى والبيئة الثقافية المنفتحة على العـالم بغير انغلاق، والممسكة بقيم روحيـة وثقافيـة بغير تطرف، هو البداية الحقيقية للالتحام بعصرٍ، المعرفة فيه قوة، وثروة ووجود.

والله من وراء القصـد

محمد إبراهيم عيد

أغسطس ٢٠٠٠

الإبداع هو الحل

فى عام ١٩٥٧ أطلق الاتحاد السوفيتى السابق مركبة الفضاء المعروفة باسم (اسبونتك) واستطاع بها أن يخرج من الأرض بجاذبيتها إلى الفضاء اللانهائى، عندئذ شعر الغرب ولاسيما فى الولايات المتحدة الأمريكية بصدمة حضارية كبرى، أصابت الكبرياء الأمريكى العلمى والتكنولوجى، فقد أدركوا أن الروس قد حققوا وثبة حضارية فى طريق التقدم العلمى، وأنهم استطاعوا أن يغزو الفضاء بإمكانات علمية أكثر تطورًا وإبداعا مما يملكه الأمريكان.

وَطُلبَ من العلماء أن يفسروا أسباب هذه الفجوة العلمية التى حدثت بين القوتين العظميين، وكان الطلب جماهيريا، يترجم حالة الخوف من ذلك التقدم السوفيتى المذهل، ويترجم على الجانب الآخر حالة الوعى والانتماء والحرص على التقدم العلمى والتكنولوجى.

واكتشف العلماء أن السبب يرجع إلى التعليم، فالجامعات الأمريكية تخرج كما هائلا من المتعلمين، أغلبهم قد تدرب على تطبيق ما هو معروف بأساليب تقليدية، وأن المناهج بشكلها الحالى لا تستطيع أن تواكب التغيير فى عالم اليوم، وأن الأمة الأمريكية أصبحت فى خطر، لأن التعليم يعتمد على الحفظ والتذكر والتلقين، وهذه أمور لا تحقق إبداعا أو تطورًا.

وبدأ العلماء يفكرون فى كيفية الخروج من هذا المأزق المصيرى، الذى يمثل تحديا حضاريًا، وكانت الاستجابة للتحدى بوضع كافة قيمهم العلمية موضع شك، خصوصًا المناهج التعليمية التى تعتمد على الحفظ والتذكر.

وانتشرت على نحو غير مسبوق البحوث والدراسات، التى تتخذ من الإبداع موضوعًا لها، فالإبداع هو الحياة، وهو جوهر وجود الإنسان. بدءوا يدرسون التكوين العقلى للإنسان وكيفية تحديد قدراته العقلية، معايير الحكم على الشىء المبدع، الخصائص التى تنطوى عليها شخصيات المبدعين، وكيف يمكن تنمية الإبداع، واكتشاف المبدعين والموهوبين.

وتصدى لهذه المهمة الحضارية علماء من أمثال جيلفورد وتورانس وتيلور ومكينون وغيرهم.

وبدا واضحًا أمام هؤلاء العلماء والباحثين أن الإبداع هو الحل لمشكلات الأمة، وأن الأمم العظيمة تستجيب للتحدى بتفجير إمكاناتها وقدراتها وإبداعاتها كى تحقق النقلة الكيفية لأمتها حضاريا، أو كما يقول (تويبنى) المؤرخ البريطانى الشهير «إن الحضارة تولد عندما يواجه البشر تحديًا، ويستجيبون لهذا التحدى، وتنمو حين تواجه التحديات الجديدة باستجابات جديدة».

وكان من جراء هذه الاستجابة المبدعة للتحدى الذى فرضه السبق السوفيتى فى غزو الفضاء هذا التطور العلمى المذهل، الذى تعيشه

الولايات المتحدة، والذى يمتد ليستوعب كافة مناشط الحياة، مهيئا للإبداع والمبدعين وأصحاب المواهب الخاصة الفرص لإطلاق العنان لقدراتهم وإمكاناتهم الخبيئة..

□□□

وفى بلادنا، نحن نعيش تحديات كبرى: اقتصادية وتكنولوجية ومعرفية وتنموية وهذه التحديات تستوجب حلولاً غير تقليدية، تكمن فى ضرورة البحث عن المبدعين والموهوبين، وتهيئة المناخ أمام قدراتهم وإمكاناتهم، حتى تتفجر علما ومعرفة وإنتاجًا.

فنحن نعيش فى عصر الخارج عن إيقاعه ضائع، ولا يمكن أن نحيا مستهلكين للحضارة غير منتجين لها، فى عصر لعل أهم ما يميزه أنه عصر يتشكل من خلال فتوحات علمية مذهلة فى وسائل المواصلات ووسائل الاتصال ووسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج وتكنولوجيا المعلومات.

وقد وضعت هذه التغيرات العلمية المتسارعة نهاية لعصر التطور البطىء، والتى كان فيها التغير يمضى موازيا لإمكانات الإنسان على الاستيعاب والتكيف، إلى عصر يستحيل معه التنبؤ بما هو قادم، فالإنسان بإبداعاته الخلاقة استطاع أن يختزل المسافات الزمنية، مدركا بوعى أن المعرفة قوة ومن ثم كانت وثباته الكيفية تكمن فى الانتقال من عالم الطاقة وحسن ترشيدها واستثمارها إلى المعرفة حيث استثمار طاقات الإنسان الإبداعية والعقلية عن طريق تكنولوجيا المعلومات.

وفى العقدين الأخيرين على الدخـول فـى القـرن الحـادى والعشـرين، جاوز الإبداع المعرفى كل قدرة على التنبؤ، حتـى إن عالمًا مثـل (توفلـر) مهتم بالمستقبليات، أصدر كتابه الأخـير (تحـول السـلطة Power Shift) وفيه حاول رصد مظاهر التطور العلمى والتكنولوجى فى عـالم اليـوم وفـى عالم الغد، بيد أنه لم يستطع أن يتنبأ بالإنـترنت، لأن الإنـترنت احتـل مكانه على الساحة المعرفية فى نفس عـام صـدور كتـاب توفلـر (١٩٩٠). وتحول العالم إلى قرية تكنولوجية واحدة، تجاوزت فيها وسائل الاتصـال والمواصلات الحدود بين الأمم والشعوب، بيد أنها لم تسـتطع حتـى الآن أن تتجاوز الخصوصيات الثقافية الفريدة للأمم والشعوب.

وتبلورت مظاهر الثورة المعلوماتية الجبارة فى مفاهيم تحـاول ترجمـة ما يحدث فى عالمنا مـن متغـيرات متسـارعة أحدثتـها الثـورة المعلوماتيـة الجبارة.

وتتمثـل هـذا المفـاهيم فـى : الكوكبيـة (العولمـة Globalization)، والكونيـة Universalism و (الاعتمـاد المتبـادل interdependerce)، والإبداع بوصفه مطلبا لا مناص منه لمن أراد أن يجد لنفسه موقعًـا متمـيزا فى عالم اليوم.

فنحن نعيش فى عصر لم تعد الحواسب الآلية فيه ولا الإنترنت مجرد تـرف معرفـى بـل ضـرورة حيـاة، مـن شـأنها أن تطلـق كوامـن الإبـداع المصرى الخبيئة، وتتيح فرصا للمشاركة فى عصـر، الخـارجُ عـن إيقاعـه متخلفٌ معنويا واقتصاديا وتكنولوجيا وعسكريًا.

مع اليقين بأن العقل الإنساني واحد، وأن العقل المصري الذى قدم إبداعاته الخلاقة عبر عصور ازدهاره الحضارى، قادر على أن يعيش عصره، وأن يختزل مسافاته الزمنية وأن يشارك بفاعلية وإيجابية فى هذا العصر.

فما المشكلة إذن ؟

المشكلة تكمن فى نظام الامتحانات المصرى، الذى هو جزء من نظام تعليمى يقوم على الحفظ والتذكر والتلقين، ولا يشجع على الإبداع الذى هو جوهر وجود الإنسان.

والإبداع لا يمكن أن يتحقق إلا فى مناخ تعليمى يقوم على الحرية والتسامح، مؤمنا بأن تعدد الآراء أمر مشروع، وأن الدهشة وإثارة التساؤل هما أساس المعرفة، وأن التلقائية فى التعبير عن الذات وعن الآخرين وعن الأفكار أيضا من شأنها أن تفضى إلى الإبداع بغير خوف أو فقدان أمن.

وأن اللاتسامح هو نتاج نظام تعليمى صارم، الخروجُ عن الأنموذج الواحد والإجابة الواحدة القطعية والنمط الواحد الراسخ، معناه الخروجُ من فلك الجاذبية، والضياع فى فضاء لا نهائى.

فمثل هذا النظام يجهض الإبداع وينال من القدرات والإمكانات والمواهب المتميزة.

فكيف يمكن للعقل أن ينشط مقدما تجلياته، ومتجاوزًا لواقعه ونحن نطالب التلميذ - فى جميع مراحل التعليم المصرى - أن يكتب ما هو

موجود بالنص، وعلى نحو تقليدى، وإن أى خروج عن مألوف الأنمـوذج الواحد معناه الخروج عن قانون التصحيح، ومن ثم الفشل والرسوب.

إن هذا النظام التعليمى يخلق نسخًا كربونية وأنماطا متطابقة تفتقر إلى التفرد وإلى الإبداع.

فمن يراجع إجابات الأوائل فى الثانوية أو الإعدادية سيجدها نسـخة كربونية منسوخة لهؤلاء الأوائل، لا تفرد ولا إبداع ولا تقديم لجديد إنمـا الأمر استسلام لمقرر دراسى، ثـم تعاطيـه، كمـا هـو، ثم اسـترجاعه يـوم الامتحان.

إنه نظام يرسخ المسايرة والتواؤم، وفى التواؤم قـهر واستسـلام لمـا هـو موجود ولا شيء سواه.

والإبداع تجاوز لما هو كائن إلى مـا ينبغـى أن يكـون إنـه نـزوع صـوب المستقبل، تشترك فى تحقيقه قدرات عقليـة متميزة وإمكانـات متواصلـة ومواهب شتى، وخيـال خصـب وفعـال، وأسـاليب تفكـير نقديـة، وروح فكرية تتصف بالتسامح وانفتاح العقل على الخبرة والحياة.

وللحقيقة فإن مشكلة الامتحانات فى مصر قديمة، فـها هـو إسمـاعيل القبانى الرائد التربوى المستنير يعلـن احتجاجـه علـى هـذا النظـام الـذى يهدف إلى حشـو أدمغـة التلاميـذ ولا شـىء سـوى ذلـك يقـول إسمـاعيل القبانى:

«إن أكبر ما يؤخذ على التعليم فـى مدارسـنا هـو أنـه لا يثقـف عقـل الطالب، ولا ينمى فكره ولا يربى فيه قوة الابتكـار وسـلامة الحكـم وروح

النقد والاستقلال في الرأى، ولا يبعث في نفسه حب العلم وتقديس الحق والشعور بالواجب، وبالإجمال لا يهيئ الفرص لتكوين الشخصية وبناء الخلق المتين، الذى يؤهل الطالب للكفاح في الحياة ولخدمة المجتمع. ومن أهم أسباب ذلك أننا أخطأنا غاية التربية، فصرنا نعني بتكديس المعلومات، ولا نبحث عن أثرها في النفس، ولا شك في أن الامتحانات بصورتها الحالية عامل قوى، بل هي أقوى عامل يوجه التعليم في ذلك الاتجاه »..

ويكاد يكون كلام الدكتور القباني في الثلاثينات وصفا دقيقا لما نعيشه اليوم رغم التطور الذى شهده الحقل التعليمي في المناهج ووسائلها وفي التربية بفروعها، وفي التشخيص النفسي وعلوم الصحة النفسية.

وعلى أية حال، فإن المشكلة تكمن في نظام الامتحانات الذى لا يقيس إلا ما حفظه الطالب واستظهره، متجنبا البحث عن قدرات الطالب وإمكاناته وقد ترتب على ذلك النظام أمران كلاهما مر.

الأول: تفشي ظاهرة الدروس الخصوصية.

الثاني: الغش في الامتحانات.

بالنسبة للأمر الأول فقد أدى التسابق المحموم بين الأسر والتلاميذ للحصول على أكبر قدر من الدرجات إلى تفشي ظاهرة الدروس الخصوصية على نحو يجعل منها ظاهرة مصرية أصيلة.

وقد أدى تفشي هذه الظاهرة بين الطلاب إلى فقدان الطالب الثقة بنفسه، وخلعها على كائن مفارق له، وهو المدرس الخصوصي، الذى يقوم

(بكبسلة) المادة العلمية - إن صح هذا التعبير - أى بتحويلها إلى (كبسولات) ولكنها من أثير، على الطالب أن يبتلعها ويختزنها كما هى ليوم الامتحانات. وفى الامتحانات تكون البراعة فى استرجاع المادة المحفوظة كما هى. بغير إضافة أو تعديل أو نقد أو تخيل أو إبداع.

ثم إن الدروس الخصوصية أصبحت أمرًا يهدد مجانية التعليم وديمقراطيته، وتعكس التمايزات الطبقية فى مجتمع يعتبر البعد الاجتماعى هدفا له. فالقادرون يأتون لكل مادة باثنين من المدرسين وأحيانا أكثر، وبراعة المدرس تكمن فى قدرته على تخمين الأسئلة، وتدريب الطالب على اتباع الإلف والمألوف فى حلها.

ولنا أن نعْرف أيضا أن الدروس الخصوصية كانت أحد العوامل التى أدت إلى نقص السيولة النقدية، فالأسر لديها اختيار من اختيارين إما أن تنفق على الدروس الخصوصية وإما أن تشترى من الأسواق وبدهى أنها تختار الممكن الأول.

والعجيب أن ارتفاع الدرجات لا يترجم قدرة علمية حقيقة إنما هو نوع من (التضخم) فى الدرجات بغير كفاءة أو فاعلية تشبه التضخم المالى.

الأمر الثانى: هو تفشى ظاهرة الغش على نحو ينبئ بتدمير قيم التف حولها المصريون وعاشوا آلاف السنين عليها. فمثل هذا النظام يجعل الغش أمرًا ممكنا، حيث يتفنن بعض الطلاب فى استحداث طرق جديدة للغش حتى أصبحنا نسمع عن حالات غش جماعية فى بعض اللجان، استخدمت فيها مكبرات الصوت أى أصبح الغش يمارس وكأنه أمر مشروع وفى العلن.

فهل هذا معقول، لبلد يسعى إلى تجاوز نفسه، ويعيش تحديات اقتصادية واجتماعية وثقافية؟

فهل هذا معقول فى عصر يسابق نفسه إبداعيًا، والإبداع فيه هو القوة والثروة والوجود؟

إننا - بنظامنا التعليمى بشكله الحالى - نرسخ الاتباع والتلقين والتذكر وجميعها تأكيد على ثقافة الذاكرة، التى لا يكتب لها البقاء إلا فى المجتمعات الاستبدادية التى تقوم على الفكرة والرأى الواحد، والتوجه الواحد والغاية الواحدة.

فى حين أننا نعيش فى مجتمع يؤمن بالتسامح وبتعدد الآراء ومشروعيتها ويعيش تحديات التأصيل الديمقراطى، ويأخذ بنظام السوق الحر بآلياته ويؤمن بالمبادرة الشخصية والتقدم الشخصى.

إذن فثمة تناقض ينبغى رفعه، لأن التعليم هو الوسيلة المركزية لإحداث التغيير المنشود، ونظام التعليم عندنا، لا يريد أن يجدد نفسه، باحثا عن وسائل من شأنها أن تفجر الإبداعات الخلاقة والإمكانات والطاقات والمواهب.ثم إن المواهب تحتاج إلى تعدد المجالات غير الأكاديمية حتى تتفتح وتزدهر مواهب الطلاب كالموسيقى والرياضة ونظم الشعر وكتابة القصة وما إلى ذلك.

والطالب لا هم له إلا حفظ دروسه وحشوها فى رأسه إلى يوم الامتحان.

فكيف يمارس مواهبه فى ظل هذا النظام التعليمى؟

كيف يكتشف نفسه، ويكتشف مواهبــه، وينميـها ويصقلـها فـى ظـل نظام تكديس المعلومات والحفظ والتلقين؟

وتأسيسًا على كـل مـا سبق نقـول: إن الإبـداع هـو الحـل لتحديـات التنمية والتقدم العلمى والتكنولوجى وإن الأخذ بالإبداع منـهجًا ووسـيلة يستلزم إحداث تغيير جذرى فى نظامنا التعليمى الذى يقوم علـى الحفـظ والتذكر والتلقين.

ولا يمكن لأمة أن تنهض إلا من خلال تحرير عقلها من أسـر الإجابـة الواحدة والنموذج الصارم والفكرة القطعيـة، فلابـد مـن التحـرر مـن هـذه الدوجما التعليميـة، التـى تنعكـس علـى سـلوك النـاس وتجعـل بعضـهم متطرفا فى استجابته وفى سلوكه.

أليس غريبـا أن يكـون التطـرف والمتطرفـون مـن بـين الطـلاب الذيـن حصلوا على درجات عليا تؤهلهم لدخول كليات القمة؟

لقد تعود الطالب على الفكـرة القطعية، التــى عليـه أن يتعـامل معـها كما هى بدون أى إعمال للعقل أو الخيال.

فنحن نغرس فيهم أن كل مشكلة لها إجابة واحدة، فى حين أن الأمر على الضد من ذلك تماما، ومن جــراء أحاديـة الإجابة، نقتلع من أبنائنا المرونة العقلية والنفسية التي هى المعيار الأوحد لكـل سـواء نفسـى ولكـل إبداع.

فالإبداع ليس معناه احتكار المعرفة، أو رؤية الأشياء من منظـور جـامد مغلق على نفسه، بل من خلال مرونة تولد عصفا عقليا من شأنه أن يولـد المزيد من الأفكار.

والإبداع فى صميمه تجسيد للمستقبل يقوم على تجاوز أوضـاع علميـة قائمة إلى أوضاع علمية قادمة، ومتواصلة بغير انتهاء.

فى معنى الإبداع !

الإبداع خاصية مميزة للإنسان، قديمة قدم الإنسان نفسه، لأنه التعبير عما هيىء به الإنسان من إمكانات وقدرات ومواهب، تنكشف - إذا ما أتيح لها فرص التعبير،اجتماعيا وثقافيًا وماديًا عن نواتج إبداعية تختلف باختلاف مناشط الإنسان، وتتيح للحياة أن تزدهر وأن تتقدم عبر الجديد الذى يتواصل بغير انتهاء محققا للإنسان العلو وللحياة التقدم.

ومسيرة الإنسان الحضارية، خير شاهد على أن الإبداع هو صلب تكوين الإنسان وجوهر وجوده، فقد انتقل الإنسان من عصر الصيد إلى عصر الزراعة إلى عصر الصناعة بالإبداع، وانتقل من عصر الصناعة إلى ما بعد الصناعة إلى ثورة المعلومات والتفجر المعرفى المتواصل وثورة المواصلات والاتصالات والإنترنت بالإبداع أيضا.

وتتعدد الآراء وتختلف فى تعريف معنى الإبداع، لدرجة يصعب معها الوصول إلى تعريف محدد لمعنى الإبداع، وهذا مردود إلى أن الإبداع كظاهرة إنسانية - ثرى فى محتواه، متعدد فى جوانبه، إذ يرتبط به قدرات الفرد العقلية، ودوافعه النفسية، وسماته الانفعالية التى قد يتحدد بعضها فى التوازن الانفعالى، والقدرة على توجيه الذات والإحساس بالتفرد والاعتداد بالنفس والانفتاح على الخبرة لتحقيق التواصل بين المبدع

وواقعه عبر الجديد الذى يقدمه، ويتجاوز به السائد والمألوف،، ويرتبط أيضا بعوامل خاصة بالبيئة المادية والاجتماعية التى تحيط بالفرد وتسمح له بالإبداع وبالتعبير الحر عن إمكاناته الخلاقة والمبدعة.

غير أن هناك من يرى أن الإبداع يرتبط بالاضطراب العقلى والنفسى، وأن المبدع مخلوق عجيب فى تصرفاته وفى أفكاره، وفيما ينتهى إليه من إبداعات، وأفلاطون الفيلسوف اليونانى العظيم هو المسئول عن هذه الفكرة، فقد ارتأى أن الإبداع ثمرة للإلهام أو الجنون الإلهى، وأن المبدع هو شخص موهوب احتضنته الآلهة بنعمى الوحى أو الإلهام.

وساد الاعتقاد بأن المبدع شخص ملهم، يتمتع بعاطفة مشبوبة وبحس مرهف، وحدس لماح، وبصيرة حادة، وإدراك نفاذ، وقدرة غير محدودة عل الإبداع، وأن الإبداع إلهام مفاجئ يهبط على المبدع، وأن هناك شياطين ملهمة أو قوى إلهية خارقة ترتبط بالمبدعين.

والواقع أنه لا يوجد فرق لغوى فى اليونانية أو اللغة اللاتينية بين الجنون والإلهام.

وقد ربط أفلاطون بين الإلهام الشعرى والهوس Mania ففى محاورة (فايدروس) يصرح سقراط بأن أعظم نعمنا تأتى من خلال الجنون، إذا كان هذا الجنون من قبل الآلهة، ويفترض وجود أربعة أنماط للجنون: الجنون التنبؤى الذى يجىء من أبوللو، والجنون الشعرى، والجنون الشعرى الذى توحى به ربات الفنون، والجنون الجنسى الذى تسببه افروديت وايروس.

وفى اللغة اليونانية القديمة لفظ mania يشير إلى حماس المبدع وهياج المجنون ومن هنا فإن الإخفاق فى التمييز بين الإلهام والجنون قد أسهم بوضوح فى تكوين فكرة العبقرية، وفكرة أن العبقرى مجنون.

وهى فكرة قد بلغ أقصى مدى لها على يد لامبروزو الذى وصف العبقرية بأنها ذهان (أى مرض عقلى) متدهور لمجموعة أشباه الصرعى، وقد تتبع آثار هذه الفكرة فى العصور القديمة فى أعمال أفلاطون وأرسطو وديموقريطس.

ولعل فى الكشف عن معنى الإبداع فى أصوله اللغوية ما يوضح القصد منه.

فى اللغة العربية بدَعهُ يَبْدَعُه بَدْعًا، بدأه وأنشأه على غير مثال سابق، والإبداع إيجاد شىء غير مسبوق من العدم، وقيل: هو إخراج الشىء من العدم إلى الوجود.

وفى اللغة الإنجليزية لفظ Create مشتق من اللفظ اللاتينى Creare أى يوجد ما هو أصيل، والأصيل ما كان غير مألوف.

وقد تباين معنى الإبداع بتباين الأطر النظرية التى تتخذ من الإبداع موضوعا لها.

فقد وجد فرويد فى الإبداع تساميًا يعلو بالمبدع فوق مكبوتاته اللاشعورية، عن طريق ما يقدمه من أعمال إبداعية تستحوذ على رضا الآخرين.

وهذا التسامى شرط ضرورى للإبداع عند فرويد، ذلك أن المبدع يسير على حافة العصاب (المرض النفسى)، ملتصقا بذاته، متشرنقا فى داخلها، تنطوى شخصيته على مكبوتات ورغبات مستهجنة، قابعة فى اللاوعى. بيد أنه يستطيع أن يخرج من ذاته، ويعلو فوق رغباته ومكبوتاته، ويتسامى عليها بالإبداع.

وقد طبق فرويد تصوراته التحليلية عن العلاقة بين الكبْت والإعلاء أو التسامى والإبداع فى تحليله لشخصية المصور الإيطالى الشهير ليوناردو دافنشى، الذى وجد فى شخصيته خير تأكيد على سلامة تصوراته، فدافنشى ابن غير شرعى، التصق بأمه التصاقًا شديدا، فشل معه فى تكوين علاقات عاطفية ناضجة مع الجنس الآخر، ومن ثم ظهرت عليه اتجاهات (مثلية) فى علاقاته بمريديه، وهذه المثلية، كبتت وتسامى فوقها بأعماله الفنية ذات الابتسامات العذرية الساحرة كما هو الحال فى لوحة الموناليزا، ولوحة القديس يوحنا المعمدان.

ويصور فرويد شخصية دافنشى بقوله: (وقد انتهت طفولة دافنشى بموجة قوية من الكبت، وَطَّدت استعدادَه الذى ظهر فى سن المراهقة، كانت أوضح نتائج هذا التحول تجنبه أى نشاط شبقى مما جعله يعيش فى عفة تامة. وقد أضفى عليه هذا صفة أنه إنسان لا جنسى. ونظرًا لميله المبكر لاستطلاع الجنس، فقد تجنب الكبت بتسامى جزء كبير من غريزته الجنسية إلى عطش معرفى، وقد استمرت عملية تثبيته على أمه وذكرياته السعيدة فى علاقته معها فى اللاشعور بصورة غير نشطة، وهكذا لعب الكبت والتثبيت والتسامى دورهم الفعال فى حياة دافنشى العقلية).

وتعزز حياة فان كوخ، الفنان الهولندى الشهير، القول بأن الإبداع يرتبط بالاضطرابات النفسية، فقد كانت حياته نموذجًا للاضطراب النفسي، عمل في أعمال شتى منذ تركه منزله وهو في السادسة عشرة من عمره، ولم يوفق في أى عمل، وكان يشعر أن وجوده يستمد دلالته من وجود امرأة تحبه وتحنو عليه، بيد أنه فشل في كل حب رغب فيه، وكان يستشعر كل فشل وكأنه جرح نرجسي لا يلتئم، ففكر في الانتحار وأقدم عليه بالفعل.

أحب ابنة عمه فرفضته، فذهب إلى بيتها، ولكنها رفضت أن تقابله وأُخبِرَ بأنها غير موجودة، إلا أنه استطاع أن يرى من خلال ترتيب المائدة أنها موجودة، فمد يده إلى شمعة وقال: (دعونى أراها طيلة المدة التى أستطيع خلالها أن أحتمل هذا الألم وهذه النار).

وسمح له برؤية الفتاة.

وأحب امرأة عاهرة فقطع لها أذنه، وأرسلها إليها هدية!

واكتنفت حياته اضطرابات بغير حدود، فوضع لهذه الحياة حدًا بأن أطلق الرصاص على قلبه، فأخطأ المرمى، واستمر يحتضر طوال يومين ومات في الأربعين من عمره دون أن يدرى أنه فنان عظيم ومبدع كبير إلا قبل وفاته بثمانى سنوات هى عمره الإبداعى.

ولكن رغم اضطرابه النفسى الشديد إلا أن حياته كانت تترجم معنيين:

الأول: أنه شديد الوعى ، عالى التركيز حينما يكتب رسائله، ومن ثم فقد كان من أكبر كتاب الرسائل.

الثاني: أنه كان على وعى بأن الإبداع ليس وليد الصدفة أو الإلهام المفاجئ بل هو وليد العمل الجاد والنشاط الإرادى الواعى.

يقول فان كوخ فى رسالة له لأحد أصدقائه (أريدك أن تعلم أنه إذا كان ثمة شيء جدير بالتقدير أو الاعتبار فيما أنا بصدد إنتاجه، فإن هذا الشيء ليس وليد الصدفة، إنما هو ثمرة لقصد حقيقى ونشاط إرادى غائى).

ولكاتب هذه السطور، بحث عن العلاقة بين الإبداع والاغتراب النفسى، أكد فيه أن العلاقة بين المتغيرين جد ضعيفة، ويمكن تفسيرها فى ضوء أن قهر المبدع لإحساسه بالاغتراب، وعودته إلى ذاته، وإحساسه بنفسه كهوية فريدة فى نوعها لا تتكرر، ووعيه بحركة التفاعل بينه وبين الواقع، وركونه إلى العزلة، واعيًا ومختارًا لا ليلتصق بذاته على حساب الواقع الخارجى، إنما ليرتد إليه من جديد، مقدمًا إبداعاته الخلاقة، وصروحه التفسيرية، رهين بموقف الإنتاج الإبداعى الذى يجسد الآداء التعبيرى لقدراته ودوافعه وسماته.

هاهنا حركة واعية من الذهاب والمجىء بين الذات والواقع، بين الداخل والخارج، لا يشعر بها إلا المبدع نفسه فى الموقف الإبداعى، وهذه الحركة يصعب قياسها باختبارات الإبداع، لأنها قائمة فى وعى المبدع، ومتأصلة بتفاعله العميق مع واقعه، ذلك أن الواقع الاجتماعى

- أيًا كانت ظروفه - يفرز الأفكار والإبداعات الخلاقة، التي هي نبت اجتماعي يصوغه ويحدد معالمه تفاعل المبدع مع واقعه، و(حضوره) في مواجهة (ما هو كائن) لبلوغ (ما ينبغي أن يكون)، ولهذا كانت روائع دستويفسكي وتولستوي، وواقعية جوركي، وحكمة وشاعرية المتنبي وأصالة ميكل أنجلو، وتفرد دافنشي، وأستاذية طه حسين، وأصالة مصرية محمود مختار.

وعلى أية حال، فإن دراسة الإبداع لم تتم في إطار منهجي إلا في الخمسينات من القرن العشرين على يد جليفورد وتيلور وتورنس وفروم وروجرز وغيرهم.

وهذا لا يعني أن هذه المحاولات لم يسبقها محاولات جادة ومخلصة ورائدة قام بها علماء أمثال سبيرمان وجالتون وتيرمان وغيرهم.

ففي عام ١٩٣١ ألف سيبرمان كتابه العقل المبدع Creative Mind وفيه حاول أن يحلل العمليات العقلية التي تؤدي إلى الإبداع الذي يظهر في صورة اكتشافات جديدة، متعرضًا للتدليل عن تصوره لعدد من المبدعين في مجالات العلوم والرياضيات، وانتهى إلى أن الإبداع يرتبط باستنباط العلاقات واستنباط المتعلقات. وتحدث عن العبقرية ولكن في ضوء القدرة على تقديم الجديد.

أما جالتون فقد اعتقد أن العبقرية موروثة، وأن الإبداع وراثي، وأن الأبناء ترث ما في الآباء من قدرات عقلية، فثمة علاقة بين العبقرية والجينات الوراثية، أما تيرمان ومعاونوه فقد كانت دراستهم في مجال

الإبداع تتصف بالدقة والموضوعية ولعل من أهم هذه الدراسات، تلك الدراسة الطولية التى استمرت خمسة وثلاثين عامًا، على عينة قوامها ١٥٠٠ طفل، يتمتعون بقدرات عقلية فائقة وفقا لمقياس (استانفورد بينه) للذكاء، فقد سجلوا ما يزيد عن ١٤٠ نقطة طبقا لهذا المقياس.

وقد ظل الباحثون طوال هذه السنوات، يتتبعون أفراد العينة، ويجمعون عنهم البيانات من مدرسيهم وآبائهم، وأسفرت النتائج عن أن الأطفال الموهوبين أفضل من غيرهم جسميا ونفسيًا واجتماعيًا وعلميًا، فعلى سبيل المثال بلغ عدد الكتب الذى قام بتأليفها أفراد العينة حتى نهاية عام ١٩٤٥ ٩٠ كتابًا كما بلغ عدد البراءات التى منحت لهم ١٠٠ براءة، منح نصفها لاثنين فقط أحدهما فى مجال هندسة الراديو والآخر فى مجال الكيمياء.

وقد ربطت هذه الدراسة بين مفهوم التفوق العقلى والذكاء، واعتبرت الذكاء مؤشرًا لمعنى التفوق.

ويمكن تعريف الإبداع من خلال النظر إليه كأسلوب حياة أو كعملية عقلية تسير وفق مراحل معينة، أو كمحصلة نهائية تتمثل فى إنتاج شىء ملموس أو شىء يسمع ويرى أو شىء تحس به.

ويمثل الاتجاه الأول علماء النفس الإنسانيين أمثال فروم وماسلو وروجرز.

يرى اريك فروم أن الإبداع يتحدد من خلال معنيين:

الأول: إنتاج شىء جديد يراه الآخرون أو يسمعون عنه..

وهذا الجديد – الذى يقصده فروم قد يكون تصويرا أو نحتا أو موسيقى أو شعرا أو رواية أو تجربة علمية تسفر عن تنظير جديد، وأن هذا الجديد يحتاج إلى توافر مواهب معينة، وظروف تسمح بتحقيق هذه المواهب.

الثانى: أن الإبداع أسلوب فى الحياة، حيث يعيش الفرد الحياة بوصفها خبرة متجددة، يحياها كما لو كان يخبرها لأول مرة، ليس هناك تكرار وليس هناك قديم، ومن ثم لا يرى الفرد إلا الجديد.

وعلى نفس النمط يؤكد إبراهام ماسلو على ما يسميه بإبداع تحقيق الذات، ولا يقدم ماسلو تعريفا محددًا للإبداع، لأن الإبداع فى تصوره أشمل فى محتواه من أن يحتويه تعريف، إذ يتضمن كل ما يحقق للفرد ذاته من خلال مناشطه المختلفة، ومن ثم لا ينحصر فى إنتاج أو نشاط معين، بل يتجلى لدى أفراد عاديين يتسمون بالتلقائية وحرية التعبير والتأليف بين الأشياء والمواقف التى تبدو متناقضة، ولا يشعرون بالخوف من المجهول، إناس يعيشون فى عالم الممارسة اليومية، بعيدًا عن عالم المفاهيم والمجردات، ويحققون ذواتهم فيما يقومون به من عمل بدون إحساس بالخوف من دوافعهم أو انفعالاتهم وأفكارهم، ويشعرون بالتقبل والثقة وعدم الخوف من سخرية الآخرين، ومن ثم يتمتعون بصحة نفسية أفضل.

ويتضمن رأى ماسلو عن الإبداع ما يسميه بإبداع الموهبة تلك التى تتجلى فى مجالات الفن والفلسفة والعلم.

وللحقيقة فإن علماء التيار الإنسانى يهتمون كل الاهتمام بالبحث عن الجوانب المضيئة فى صلب تكوين الإنسان، عن الإيجابية فى طبيعته وعن سعيه لاستثمار طاقاته وحسن توظيفها، وعن تأصيل المعنى والقيمة والاستمرارية والتطور ليتجاوزَ الإنسان ما هو (كائن) لبلوغ (ما ينبغى أن يكون)، ولهذا فهم ينظرون إلى الإنسان باعتباره كائنا فى حالة من العلو والتسامى، وأنه يستطيع أن يتجاوز ماضيه ويتجه بكل طاقاته صوب المستقبل، ولهذا فإن الإبداع كما يتصوره أصحاب هذا التيار من الممكن أن يكون جماهيريا، يعيشه الناس كأسلوب حياة متدفق بالمعنى، متجدد بتجدد الحياة.

ومن هنا كان قول ماسلو بأن إنجازات الإنسان الحضارية ترجع إلى قدرته الإبداعية، وميله إلى تحقيق ذاته من خلال إنتاجه الإبداعى.

كذلك يرى روجز أن الإبداع يرجع إلى ميل المبدع إلى تحقيق ذاته باستثمار أقصى ما لديه من إمكانات.

وتؤكد بعض التعريفات على أن الإبداع عملية عقلية، تبدأ بالتعرف على المشكلة التى تستثير المبدع وتنتهى بتقديم الجديد، وتختلف المشكلات باختلاف مجالاتها، فقد تكون مشكلة سياسية أو معضلة اقتصادية أو اجتماعية أو علمية أو فنية.

ولهذا يرى تورنس أن الإبداع هو العملية التى تتضمن الإحساس بالمشكلات والفجوات فى مجال ما، ثم تكوين بعض الأفكار أو الفروض التى تعالج هذه المشكلات، واختبار هذه الفروض وأخيرا إيصال النتائج إلى الآخرين.

وقد حاول بعض العلماء أن يحدد معنى الإبداع فى ضوء بعض العوامل العقلية، والتى يمكن من خلالها تفسير العملية الإبداعية.

وعلى رأس هؤلاء العلماء (جيلفور) الذى يرى أن (الإبداع هو تنظيمات من عدد من القدرات العقلية البسيطة، وأن هذه التنظيمات تختلف باختلاف مجال الإبداع).

ويذكر من هذه القدرات عوامل الطلاقة والمرونة والأصالة. وهذه العوامل الثلاثة تعنى قدرة الفرد على إنتاج الجديد فى عالم الأفكار أو الكلمات أو مناشط الحياة المختلفة، وأن هذا الإنتاج الجديد لابد وأن يتميز بالجدة، فى زمن معين، وضمن مواقف معينة، وطبقا لشروط معينة، يمكن قياسها عن طريق الاختبارات التى وضعها جيلفورد والتى يفترض فيها ارتباطها بالقدرة على الإنتاج الإبداعى.

ويميز جيلفورد بين نوعين من التفكير:

التفكير المحدد Convergent . والتفكير المنطلق Divergent.

التفكير الأول يعنى أن هناك إجابة صحيحة لما يفكر فيه الفرد، وأن إجاباته محدودة بما يوجد فى المجال موضوع التفكير، أما التفكير المنطلق فيتميز بانطلاقة صاحبه عبر الشائع والمألف، ويكمن وراء كل إنتاج إبداعى جديد،

ويرى جيلفور أن هذا التفكير المنطلق يندرج تحته عدد من العوامل العقلية التى تتمثل فى: الطلاقة بأنواعها الأربعة: اللفظية والارتباطية

والتعبيرية والفكرية. المرونة Flexibility بنوعيها التلقائية والتكيفية، ثم الأصالة originality والحساسية للمشكلات وإعادة التحديد.

وقد ترتب على التصور الذى قدمه جيلفور للعملية الإبداعية فقدان الباحثين الثقة فى معامل الذكاء باعتبار أن معاملات الذكاء لا تعطى فكرة صادقة عن المستوى العقلى والوظيفى للفرد، ولاسيما بعد أن اتضح أن التكوين العقلى بالغ الثراء وأنه ينطوى على قدرات عقلية تبلغ وفق تصور جيلفورد (١٢٠) قدرة عقلية، ومن ثم فمن الخطأ الركون إلى وهم اختبارات الذكاء لقياس القدرة العقلية عند الطفل وغير الطفل.

وثمة فريق آخر من العلماء يفسر معنى الإبداع بوصفه المحصلة الختامية لقدرات الفرد العقلية ودوافعه النفسية وسماته الشخصية والعوامل البيئية الاجتماعية والمادية التى ينتمى إليها، والتى تتمثل فى ناتج إبداعى ينفصل فى وجوده عن مبدعة، ولكنهم يختلفون فى تفسير معنى الجدة فى ضوء النسبى والمطلق فلهذا يرى روجرز أن الابتكار هو إنتاج جديد نسبيًا، يحدث نتيجة تفاعل الفرد مع البيئة.

ومما سبق يتضح أن الإبداع ظاهرة مركبة متعددة الجوانب، مختلفة المعانى لاختلاف الأطر الثقافية لدى الباحثين والعلماء فى هذا المجال.

ورغم هذا التباين فى وضع معان محددة للإبداع إلا أنهم يتفقون على حقيقتين هامتين لكل إنتاج إبداعى:

أن يكون جديدًا، وأن يكون له قيمة.

والجدة نسبية غير مطلقة، وإلا استحال التطور والتقدم، تتأكد عبر استحسانات الجماعة في زمن معين وضمن مواقف معينة، ومن ثم تكون دلالة الإنتاج الإبداعي، أي قيمته، وقيمة الشيء تعني الكيف من حيث جدواه ودلالته وإسهاماته في حياة الإنسان الفكرية والفنية أو العلمية.

ومن ثم فليس بالكم وحده يكون الإبداع.

والآداء الإبداعي يتوقف على المبدع ولا يقوم إلا من خلاله، بوصفه الكائن الوحيد الذي يصبو دائما إلى أن يكون غير ما هو عليه، ويتميز هذا الفرد بسمات انفعالية تميزه عن غيره ويستوجب أداؤه الإبداعي متطلبات لعل من أهمها:

الانفتاح على الخبرة بغير جمود أو تعصب، بل بتسامح وقبول الآخر.

التقويم الداخلي حيث القدرة على النقد الذاتي.

وأخيرًا القدرة على التعامل الحر مع المفاهيم والعناصر.

□□□

وفي مصر اهتم كثير من العلماء والمفكرين بدراسة الإبداع دراسة منهجية ولعل من أبرزهم عبد السلام عبد الغفار، ومصطفى سويف وفؤاد أبو حطب ومراد وهبة وسأحاول أن أعرض لبعض آراء هؤلاء العلماء والمفكرين:

الإبداع عند عبد السلام عبد الغفار يستند إلى تصوره عن طبيعة الإنسان والتي يحددها في أنً:

أولاً:

الإنسان مزود بتكوين عقلي أدى ما ترتب عليه من آثار إلى فصل الإنسان عن بقية المخلوقات، فهو الكائن الوحيد الذى يدرك بعد الزمن، ويستطيع أن يخطط لحياته، وأن يستخدم الرمز فى تسجيل وتطوير ثقافته، وتتوج قدراته بالقدرة على الإبداع وتطوير نفسه وواقعه.

ثانيا:

الإنسان حر بطبيعته، وحريته من أهم محددات إنسانيته وهى من أهم الصفات التى تميزه عن غيره من الكائنات وللتكوين الذى زود به الإنسان دور رئيسى فى ممارسة الفرد لحريته، ويدرك الإنسان أن ممارسته لحريته يستتبعها مسئولية عما يختار.

ثالثا:

الإنسان مخلوق واع مفكر، ذو شخصية شمولية، ومن ثم فهو ليس فريسة لصراع قوى غريزية قسرية وأخرى اجتماعية ضاغطة كما تقول مدرسة التحليل النفسى، وليس خاضعا لآلية سلوكية تجعله أشبه ما يكون بشىء، مجرد شىء.

بل إن شخصية الإنسان شخصية كلية تنطوى على جوانب خلاقة مثل حريته وإرادته وقيمه وفلسفته وجوانبه الروحية.

وأخيرا فإن الإنسان يملك إرادة الوجود تلك التى تكمن وراء كل معنى وهدف فى حياة الإنسان.

ويرى أن الإبداع يكمن فى المنتج الإبداعى الذى يتصف بالجدة، وهى جدة نسبية غير مطلقة، والمغزى، أى القيمة واستمرارية الأثر .

ويعرف مراد وهبة الإبداع بأنه (قدرة العقل على تكوين علاقات جديدة من أجل تغيير الواقع).

وتعريف مراد وهبة يستمد دلالته من شواهد التاريخ الإبداعى لحضارة الإنسان حيث:

- جدلية العلاقة بين الإبداع والأيدلوجية والثقافة.
- تجاوز مفاهيم الذكاء والعبقرية ومطلقية الحقيقة.
- تجاوز انغلاق ثقافة الذاكرة إلى انفتاح ثقافة الإبداع.

وأخيرا يقدم رؤية مستقبلية تقوم على الإبداع فى مواجهة التلقين والتذكر والذكاء.

□□□

وتأسيسًا على كل ما سبق فإن الإبداع هو جوهر وجود الإنسان، وهو شيء كامن فينا، هو نحن، هو الإنسان بما هو إنسان.

الإبداع أعدل الأشياء
قسمة بين البشر

لعل من أهم التساؤلات التى تواجه المشتغل بالإبداع هو تعدد معانى الإبداع وغموضها فى كثير من الأحيان. ، وهذا التعدد وذلك الغموض يثير الكثير من التساؤلات ، ولعل من أهمها:

هل الإبداع معطى أولى يولد الإنسان وهو مزود به؟

وبمعنى آخر:

هل الإبداع جوهر وجود الإنسان؟ أم أننا نكتسبه بحكم النشأة والبيئة؟

أم أن هناك علاقة جدلية بين ما نولد ونحن مزودون به وبين الواقع الذى نعيشه بما ينطوى عليه من محددات بيئية؟

وهل العقل الإنسانى واحدٌ أم أنه متعدد؟ فإذا كان العقل الإنسانى متعددًا لزم أن يكون هناك تشكيلة متنوعة من العقول، هذا عقل إفريقى قائم بذاته ، ومقطوع عن غيره من العقول، وذلك عقل أوربى ، وهذا أمريكى.

وللإجابة عن هذه التساؤلات ، نستشهد بالمسيرة الحضارية الإنسانية التى تدلنا على أن الإبداع هو جوهر وجود الإنسان ، وهو المكون الراسخ

الذى ميز الوجود الإنساني عن باقي الموجودات، فلم يكن الانتقال من عصر الصيد إلى عصر الزراعة - الذى يؤرخ التاريخ الحضارى ببدايته - محض صدفة، بل جاء نتيجة جهد إنسانى إبداعى استلزم آلاف السنين، فبفضل تكنيك الزراعة نشأت عدة علوم، فمن الأشكال المنتجة فى عملية الغزل نشأت الهندسة، ومن عدد الخيوط التى تنطوى عليها هذه العملية نشأ علم الحساب، ومن الحركة الدائرية التى تنطوى عليها عملية النسج تأسس علم الميكانيكا واخترعت وسائل المواصلات.

ولنا أن نعرف أن البشرية استغرقت ما يقرب من أربعة ملايين سنة لكى تنتقل من عصر الصيد إلى عصر الزراعة، أما الانتقال من عصر الزراعة إلى عصر الصناعة وإلى عصر ما بعد الصناعة فقد استغرق ١٤٠٠ سنة ومعنى هذا أن الإبداع يختزل المسافات الزمنية.

إن ما نعيشه من تطورات علمية وتكنولوجية ومعلوماتية جاء نتيجة جهد إبداعي إنساني استغرق آلاف السنين، فمر الإنسان بمراحل كان تفكيره فيها نرجسيًا. أى عاشقا لنفسه، متمركزا عليها، غير عابئ بالآخرين، وكان يعتقد فى السحر، ثم مر بمرحلة الطوطمية tootemism وعبادة الطبيعة، حتى وصل إلى بدايات تشكيل الضمير والموضوعية مع ظهور الزراعة والحضارة فى مصر والصين والهند وفلسطين واليونان والمكسيك.

وهذه الحضارات هى نتاج عقل الإنسان وخياله الخصب ووعيه بذاته، وبهذا الوعى، وبذلك العقل، وبتلك القدرة على التخيل عاش

الإنسان فى حالة من التنافر مع الطبيعة، وفى حالة من عدم الانسجام، وفى حالة من عدم التكيف مع الطبيعة. وعلى الضد من ذلك الوجود الحيوانى، فهو فى حالة انسجام وتناغم Harmony مع الطبيعة، لأنه جزء من الطبيعة لا يستطيع أن يتجاوزها، وليس له عقل أو ضمير أو وعى بذاته.

وقد جعلت هذه القدرات من الإنسان كائنا فريدًا، فى الكون بأسره، فرغم أنه جزء من الطبيعة خاضع لقوانينها إلا أنه قادر على تجاوز النظام الذى يشمل بقية الطبيعة.

ولهذا كان الإبداع – وما يزال – مرتبطًا بقدرة الإنسان على التجاوز.. وبقدرته على الخروج عما هو مألوف إلى ما هو غير مألوف بالجديد الذى يتواصل بغير انتهاء. وبعبارة أخرى ارتبط الإبداع دومًا بسيكلوجية التمرد متجاوزًا سيكلوجية التوأم، لأن التوأم قهر واستسلام لما هو موجود، والتطور يلزم تغييرًا وتطويرَ الواقع على نحو أفضل.

وثمة تفاعل جدلى بين ما تولد ونحن مزودون به وبين ما نعيشه من بيئة لها مثيراتها ومواقفها ومحدداتها. وبصياغة أخرى نقول أن ثمة تفاعل بين الوراثة والبيئة، من شأنه – إن كان خصبا وإيجابيًا – أن يحقق للإنسان نموًا إبداعيًا مزدهرًا.

والإنسان هو ذلك الائتلاف الفريد من الجينات الوراثية التى تتفاعل مع محددات البيئة، حتى والإنسان مجرد نطفة فى قرار مكين.

وقد انقسم العلماء إزاء قضية الوراثة والبيئة إلى ثلاثة أقسام فى محاولتهم الإجابة عن: هل الوراثة هى المسئولة عن التباين فى عالم البشر أم البيئة؟ أم أن التباين مردود إلى التفاعلات الخصبة بينهما.

وللإجابة عن هذا التساؤل انقسم علماء النفس إلى ثلاثة أقسام: كل قسم يمثل وجهة نظر مباينة للآخرى.

الفريق الأول: ويمثله غلاة القائلين بالحتمية الجينية Genetic Determinism ويرون أن الاختلاف بين البشر مردود إلى الاختلاف فى الجينات الوراثية، وأن النمو ما هو إلا عملية تابعة لهذا المخطط الجينى الفريد.

الفريق الثانى: ويمثله غلاة القائلين بالحتمية البيئية Environmentalist وهم يرون أن الفروق الفردية فى العقل والمعرفة والشخصية والعمل، ما هى إلا نواتج للتعلم والخبرة المكتسبة.

الفريق الثالث: وهو يمثل الاتجاه الدينامى بين الفريقين، حيث يرجع الفروق بين الناس إلى التفاعل بين محددات الوراثة ومحددات البيئة فهناك القليل، بل القليل جدًا، من الخصائص الإنسانية التى ترجع إلى محددات الورثة، مثل لون العينين والشعر والبشرة.. الخ. وأن هذه الخصائص فى صميمها جوهرية وثانوية فى آن واحد، وأن التفاعل بين الوراثة والبيئة فى عالم الإنسان هو المسئول فعلا وواقعا عن كافة الاختلافات بين البشر.

ويميل كاتب هذه السطور إلى القول بجدلية التفاعل بين العقل كقاسم مشترك بين الناس جميعا وبين البيئة التي يسكن فيها ولنضرب مثلا على ذلك بالمصرى القديم الذى استطاع أن يطوع النهر العظيم لإرادته وأن يبنى على ضفافه حضارة عريقة ضاربة بجذورها فى عمق الزمان، ولم تستطع أى دولة أخرى من الدول التى يمر بها أن تبنى على ضفافه حضارة مثلما فعل المصريون. ومن ثم فمصر هبة النيل والعقل المصرى معًا.

ومع هذا فإن القائلين بالحتمية الجينية يرون أن الوراثة تمثل الحد الأعلى لما يمكن أن يحققه الإنسان بينما البيئة تؤثر فى نوعية الدرجة التي يمكن أن تحققها الإمكانات Potentiolities فها هو جنسن Gensen يعلن أن العوامل الوراثية تسهم فى ٨٠٪ من ذكاء الفرد، بينما تسهم البيئة فى ٢٠٪ من هذا الذكاء.

وللحقيقة فإن مفهوم الذكاء مجرد تصور افتراضى لا وجود له أصلا ونستدل عليه بأعمال العقل الإنسانى، ولهذا عندما سئل بينيه مصمم مقياس الذكاء الشهير عما يقصده بكلمة الذكاء إجرائيا. أجاب: إن الذكاء هو ما يقيسه مقياسى.

يقول ماينار سميث Maynard Smith فى كتابه (التطور والتاريخ):

(إن الفرق الجينى لم يكن مسئولا عن تفوق العرب فى الأبحاث العلمية بالمقارنة مع أوربا الغربية قبل ألف عام، ولا عن انقلاب هذا الوضع).

ولعل فى اختراع (الصفر) ما ينهض دليلا على أن العقل الإنسانى واحد وأنه معطى أولى للإنسان، فالذى اخترع الصفر هم هنود

المايابهو ندوراس جنوب جواتيمالا بأمريكا الجنوبية ونقل هذا الاختراع إلى الهند بعد خمسة قرون، ثم نقله العرب عن الهنود، ونقلوه بدورهم إلى أوربا.

فالصفر الذى يبدو وكأنه شيء بسيط، قد اختزل العمليات الحسابية وحقق للإنسانية وثبات كيفية فى طريق التقدم، ولنا أن نتصور حال العالم بغير صفر.

فثمة أوهام ينبغي التحرر منها مثل مفاهيم العبقرية الموروثة على النحو الذى ارتآه جالتون والذكاء الجينى الذى أكد على وجوده سلسلة طويلة من العلماء، بداية من هربرت سبنسر الفيلسوف الإنجليزى الشهير وانتهاء بـ ايزنك عالم النفس البريطانى الذى أكد على ما قاله جنسن Gensen من أن الذكاء وراثى بنسبة ٨٠٪ وأن تأثير البيئة لا يزيد عن ٢٠٪.

وعلى أية حال فإن مفهوم الذكاء قد استخدم على أنحاء شتى لتبرير التمييز العنصرى، ولتأكيد تفوق شعب على شعب آخر، ومن ثم تبرير الاعتداء على الشعوب المفترض أنها أقل ذكاء واقرار اللامساواة بين البشر، باعتبار أن الطبقات الدنيا فى المجتمع هم ضحايا الجينات الوراثية.

وصاحب هذا الرأى هو أرثر جنسن الذى أعلن صراحة أنه مع النظرية الجينية وضد النظرية البيئية ففى رأيه أن الجينات هى المسئولة عن اللامساواة بين البشر وعن التخلف فى التعليم، ومن ثم فالطبيعة هى

العلة الأولى للتمييز العنصرى، وعلى ذلك يقرر جنسن أن التفكير وهو جوهر العملية التعليمية لا يعلم، وأن الذكاء موروث بنسبة ٨٠٪، وتأثير البيئة لا يزيد نسبته عن ٢٠٪ ومن ثم يصبح التعليم ترفًا لأنه لا يحدث أى تغيير.

وفى عام ١٩٧٤ نشر ليون كامين Kamin كتابا بعنوان (العلم وبوليتيكا قياس الذكاء) يجيب فيه عن سؤال واحد هل نسبة الذكاء موروثة؟ جواب الرأى الشائع أن الذكاء موروث بنسبة ٨٠٪، أما كامين فيرى أن هذه النسبة ليس لها سند تجريبى، وهى مردودة إلى الالتزام بوجهة نظر اجتماعية محددة وهى أن الطبقات الدنيا هم ضحايا الجينات الوراثية ومعنى ذلك أن قياس الذكاء مسألة سياسية.

أما (ايزنك) Eysenck فيؤيد النظرية الجينية ولكنه ينكر ما يترتب عليها من تمييز عنصرى بين الناس.

وعلى أية حال فإن الذكاء مفهوم افتراضى استخدم لتبرير سياسة التمييز العنصرى ولتبرير تقدم شعب على آخر ومن ثم ينبغى تجاوزه وعدم ربطه بالإبداع. لأن الإبداع هو نتاج العقل، والعقل الإنسانى يسير على نحو واحد فى جميع الموضوعات، لأنه أداة الإنسان للوصول إلى الحق، وهذه الأداة إنسانية محضة، وأن العقل قدرة يجب تدريبها كى تنمو، وأنه يحتاج لبيئة إبداعية كى يزدهر ويقدم إبداعاته الخلاقة وليس أدل على ذلك من العالم المصرى الشهير أحمد زويل، فهو مصرى المولد والمنشأ، بيد أنه حينما وجد بيئة إبداعية تتيح فرصا للإبداع تفجرت

إمكاناته وإبداعاته العلمية، فليس الأمر مرتبطًا بجينات مصرية أو أوربية أو أسيوية.

ونصل إلى النقطة الثالثة وهى أن:

العقل الإنسانى واحـد، ووحدتـه تعنـى أن حضـارة الإنسـان حضـارة واحدة، فنحن نعيش حضارة إنسانية واحدة، صنعـها الإنسـان علـى مـر عصوره، بيد أننا نعيش ثقافـات متعـددة. والثقـافة بطبيعتـها لا تسـافر ولا ترحل ولا تتعولم.

تفسير ذلك:

إن العقل الإنسانى واحد، ولكنه محكـوم بثوابـت الجغرافيـا والثقافـة ولهذا فإن العقل المصرى فى قمة توهجه الحضـارى فـى مصـر الفرعونيـة استطاع أن يقدم إبداعاته الخلاقة وأن يقيم حضارته على ضفاف النيـل، وأن يجعل من مصر قبلة للعلماء وللرسل أيضًا.

وفى العصـور الوسـطى الإسـلامية ازدهـر العقـل الإنسـانى، واسـتطاع بمساحة التسامح وحرية البحث أن يتمثل ويهضم التراث الإنسانى القديم وأن يضيف إليه وأن ينقله إلى أوربـا عـبر معـابر حضاريـة وتنويريـة فـى الأندلس وطليطلة وقرطبة.

وانتقل العقل الإنسانى للإقامـة فـى أوربـا بعـد طـول غيـاب بفعـل الصراع والتوتر القائم بـين الإبـداع العقلـى والجمـود الفكـرى المتمثـل فـى السلطة الدينية وقتئذ والتى أعدمـت برونـو وحـاكمت جـاليليو، ودفعـت دبكارت أن يُهرب كتابه (العالم) إلى بلد آخر هو هولندا!

ولم يتمكن العقل الإنسانى من الإقامة فى أوربا إلا على يـدى فلاسـفة التنوير الذين استطاعوا أن يطـهروا هـذا العقـل مـن الأغـلال التـى تكبلـه وتحرمه من تقديم تجلياته الإبداعية، وكـانت النقلـة التنويريـة علـى يـد ديكارت وفرنسيس بيكون وكانط وفولتير وغيرهم من الفلاسفة العظام.

وصك كانط للعصر شعاره: كن جريئا فى استخدام عقلك! فلا سـلطان على العقل إلا العقل ذاته، وأن العقل هو السيد الذى ينبغى أن يطاع وأن هذه السيادة لا تتحقق إلا فى بيئة تشجع على الإبداع بالتسامح بين الأنا والآخر وتجاوز الجمود الذهنى والأفكار المطلقة. ومن ثم يستطيع العقل أن يقدم إبداعاته!

وتأسيسا على كل ما سبق نقول:

إن الإبداع هو جوهر وجود الإنسان!

فالإنسان يولد وهو مزود بقـدرات عقليـة متمـيزة وبإمكانـات تتواصـل بغير انتهاء ومواهب شتى، وخيال خصب، وهذه القدرات وتلك المواهـب تظل خبيئة طى النفس باحثة عمن يخرجـهـا مـن حـيز الكمـون إلى حـيز التحقق الخلاق فى الواقع.

وعلى هذا، فـإن النـاس مبدعـون بطبيعتـهم، لأنـهم يملكـون العقـل والقدرة والإمكانية، وتلك هى (المساواة) التـى تجمـع النـاس حـول قاسـم مشترك واحد ينهلون منه هو الإبداع.

ومـا الفـروق بـين النـاس إلا دليـل علـى أن فــرص تنميـة القـدرات والإمكانات غير متكافئـة بـين النـاس، ثـم إن البيئـة المخصبـة للإبـداع،

الحيْلى بأجنة المستقبل والمفجرة لإمكانات الإنسان قد تكون موجودة في موقع وغائبة عن موقع آخر فيزدهر الإبداع هنا ويخبو هناك.

وغياب هذه البيئة الإبداعية من شأنه أن يكثف على جانب واحد من جوانب المعرفة، وهو التفكير الذى يقوم على الحفظ والتذكر وحشو الأدمغة بالمعلومات فى مقابل التفكير القائم على التلقائية والمرونة والرغبة فى الاستكشاف والأصالة فى التعامل مع الأشياء والموضوعات، والخيال الخصب المولد للمعرفة.

يقول أنشتين: إن العلم ثمرة الخيال ويحكى قصة اكتشافه لقانون النسبية فيقول: (كنت أجلس على قمة تل، أتأمل الفضاء وعيناى نصف مغمضتين وإذا بأشعة الشمس تداعب رموش عينى وتتفرق إلى آلاف الأشعة) وهنا بدأ يسأل نفسه، عمَّا يمكن أن يحدث لو أنه استطاع أن يمتطى أحد هذه الأشعة ويسير معها فى اتجاهها وأخذه خياله فى رحلة الكون واكتشف أن ما وصل إليه بتفكيره عن مصير تلك الرحلة الخيالية، يتعارض مع دراسته السابقة فى علم الفيزياء، فبدأ يراجع أفكاره السابقة، وأعاد صياغة فكره فى صورة نظرية جديدة هى نظرية النسبية التى أحدثت هذا التطور فى حياتنا المعاصرة.

ولم ينسب أنشتين نجاحه إلى تفوقه كعالم فى الرياضيات أو الفيزياء وإنما إلى قدرته على التخيل.

وتركيز أنشتين على الخيال يعنى أنه وسيلة لتحقيق الإبداع ولتأكيد فاعلية العقل، فعن طريق التخيل يمكن للعقل تجاوز ما هو قائم إلى

ما هو قادم، ذلك الذى يتجسد كمستقبل يمكن تجـاوزه أيضـا، فالخيـال كان وما يزال شرطا ضروريا لتحقيق الإبداع.

ومفهوم الإبداع فى ضوء نماذج البحوث المعاصرة فى حاجة إلى إعـادة رؤية حتى يمكن من خلاله التنبؤ بالإنجازات العلمية وإمكانية تفسـيرها تفسـيرا علميًا. وقـد أكـدت دراسـات جيلفـورد عـن التفكـير الإنفـاقى أو الاتباعى أو المحدد وهم جميعا ترجمـة لكلمـة Convergent (الذكـاء) والتفكير الافتراقى أو التغييرى أو المنطلق أو الإبداعـى Divergent إنـهما ضدان، فالإبداع على الضد من الذكـاء، فقـد تكـون ذكيـا وفقـا لدرجـات مقاييس الذكاء ولكن لست مبدعًا.

والطفل يولد وهو مزود بمقومات الطبيعة الإنسانية فى أنقـى صورهـا، مزود بالتعطش المعرفى والتلقائية المبدعـة والميـل إلى التفكـير المجـرد وإلى المرونة فى صياغة المشكلات، والأصالة فى أساليب حلها.

وعلى هذا فإن الإبداع يفجـره الشـوق الدائـم إلى المعرفـة، والدافـع إلى الاستكشاف واختراق المجهول، والمخاطرة فى سبيل المعرفة، فلـولا هـذه المخاطرة الإبداعية ما استطاع الإنسان أن يخرج من الأرض بجاذبيتها إلى أفلاك السماء أو يرتـاد الجبـال أو يستكشـف القـارات، وأن يغـوص فـى أعمق أعماق البحار والمحيطـات باحثـا ومنقبًـا ومخـاطرًا، وقـد أصـاب نيتشه الفيلسوف الألمانى حينما قال: (كى تجنى أسمى مـا فـى الوجـود من ثمرات. عش فى خطر).

والخطر هنا إبداعى يستنير بالعقل!

ثم هناك ضرورة إثارة المشكلات العقلية وتحديد الأهداف، والتسامح إزاء الغموض وعدم اليقين وعدم المسايرة التى تجعل الإنسان خاضعًا للمألوف لا ينشد التطور والتغيير.

والطفل الصغير يتصف بالتلقائية، والرغبة فى اقتحام المجهول، وهو يتعلم من البيئة المحيطة به، وإذا سمحت له الظروف، فإنه يستطيع أن يستثمر طاقاته الخلاقة فى سن مبكرة.

لقد بدأ جون ستيوارت مل دراسته للآداب اليونانية وهو فى سن الثالثة وما أن بلغ الثامنة حتى كان قد قرأ كل مؤلفات هيرودوت، ومحاورات أفلاطون الست الأولى وتفجرت إمكاناته الإبداعية فى سن مبكرة.

فما الذى يجعل طفلا كجون ستيوارت مل يبدع وهو صغير، ولا يجعل غيره من الأطفال يصلون إلى ذلك.

السبب يكمن فى البيئة المولدة للإبداع المفجرة للإمكانات، الدافعة إلى المعرفة.

وماذا عن أطفالنا ونحن نعيش ما يمكن تسميته بجيل الشاشة الصغيرة المتخم بالصور المرئية والذى هضم آلاف الساعات من العروض التليفزيونية متشرباً ما فيها.

لقد أصبح (التليفزيون) بيئة تربوية للطفل، ومن ثم يصبح على الإعلام أن يكون فى خدمة قضايا التعلم وتكنولوجيا المعلومات وحرية

التعبير، فلم تعد العدالة الاجتماعية تكمن فى إعادة توزيع الثروة فحسب، وإنما أيضا فى توزيع المعلومات ووسائل الإعلام التى تنتجها، ومن هنا تستند الحرية والعدالة الاجتماعية بشكل متزايد على الطريقة التى يعالج بها كل مجتمع ثلاث قضايا: التعلم وتكنولوجيا المعلومات بما فى ذلك وسائل الإعلام وحرية التعبير.

والإبداع ليس عملية غامضة يصعب تحليلها عقليا، فقد أكدت البحوث التى أجريت على المبدعين أن الإبداع يمكن تحليله عقليا، ويمكن فهم العلميات المعرفية والقوى الدافعة والمؤثرات البيئية والخيال الخصب والمكونات النفسية والشخصية التى تميز المبدع.

والإبداع ليس مقتصرا على الموهوبين والنخبة، فكل إنسان يولد وهو مهيأ للتفكير بأسلوب إبداعى، فالإبداع يمكن توليده ويمكن نشره بين الجماهير وتهيئة الناس على العيش وفقا لأسلوب التفكير العلمى والتفكير الناقد، بتفعيل القدرات الإبداعية ومن ثم يكون الإبداع للجميع. الإبداع الجماهيرى، وهذا لن يتحقق إلا إذا بلغنا الوعى بأن:

الزمن شىء نادر يمكن استثماره، فالزمن من أهم مقومات الإبداع وإهداره إهدار للإمكانات والقدرات والعقل المبدع. ومن خلال بيئة مبدعة يمكن تفجير الإمكانات والقدرات الخبيئة، أى تفجير ما هو موجود بالقوة فى صلب تكويننا ليكون بالفعل فى واقعنا.

الموهبـــة

تحدثنا فى الفصول السابقة عن الإبداع، باعتباره أعدل الأشياء قسـمة بـين النـاس، وبينـا أن النـاس يولـدون وهـم مـزودون بـالقدرة والموهبـة والإمكانية، وأكدنا على أن المنتج الإبداعى لابد وأن يتصـف بخصـائص، لعل من أهمها أنه نسبى غير مطلق، وأنه يتصف بالجدة واستمرارية الأثر والقيمة.

وأكدنا على أن الموهبة تأتى فى إطار الإبداع، فكل مبدع موهـوب فـى إنتاجه الإبداعى، أى أن إنتاجه الإبداعــى يتصـف بالخصـائص السـالفة الذكر.

وهنا نتساءل عن القصد من الموهبة؟ وعن مدى ارتباط الموهبة بالإبداع؟

نجيب بأن ثمة إجماع بين المشتغلين بالإبداع، علـى أن الموهبـة قـدرة خاصة، تتحدد بتحدد مجالها، فقد تكون هذه القدرة فنية، أو اجتماعية أو موسيقية وما إلى ذلك.

أما الموهوب فهو من تفوق فـى قـدرة أو أكـثر مـن القـدرات الخاصـة. أو هو من وصل فى أدائه إلى مستوى رفيع فى مجال من المجـالات غـير الأكاديمية، كالفنون والألعاب الرياضية، والمجالات الحرفية أو المهارات الاجتماعية وغير ذلك من المجالات التى تعتبر بعيدة الصلة عـن الذكـاء وقياسه.

يعرف جيمى دريفر صاحب معجم علم النفس (١٩٥٢) الموهـوب بأنـه من لديه مواهب ذات مستوى عال فى مجال معين أو فى عدة مجالات.

وفى معجم علم النفس لانجلش وانجلش فإن الموهـوب هـو مـن لديـه موهبة بدرجة عالية، أو من لديه ذكاء عال.

وفى هذا التعريف ربط بين الموهبة والذكاء.

وهو ربط لا تدعمه آراء الثقاة فى علم النفس، فـها هـو لانـج وايكيـوم يقول: «بأن المواهب قدرات خاصة ذات أصل تكوينـى، لا ترتبـط بذكـاء الفرد، بل إن بعضها قد يوجد بين ذوى الحاجات الخاصة».

وقد نبه سيبرمان إلى ضرورة فصل الإنتاج الإبداعى الذى يتسم بموهبة الإبداع عن الذكاء العام، مؤكدا على وجود عوامل أخـرى تعمـل بجـانب الذكاء، لعل من أهم هذه العوامل: ما هو انفعالى وما هو اجتماعى وما هـو بيئى.

ولم يستطع جالتون وهو من أشد المنادين بأن الذكاء وراثى أن يتجاهل وجود عوامل متعددة تؤثر فى الإنتاج الإبداعى فالفرد قد يرث القدرة على الإنتاج الإبداعى غير أن الظروف الاجتماعية وإحباطات الحياة قد تحول دون ذلك.

وهنا لابد من فصل الموهبة عن اختبارات الذكاء، فعلى سـبيل المثـال، الطفل الذى لديه عيوب فى الحساب أو القراءة قد يكون متمتعًا بمواهـب موسيقية أو رياضية وذلك راجع إلى أن الطفـل الموهـوب غالبـا مـا يتمتـع

بقدرات أداء عالية فى أحد أو بعض المجالات الإبداعية أو الفنية أو القيادية أو الاجتماعية أو الرياضية ولذلك فعلى المدرسة أن توفر هذه المجالات التى من خلالها يكتشف الأطفال قدراتهم ومواهبهم.

أضف إلى ذلك أن إبداع الموهبة لا يتحقق إلا فى سياق ثقافى اجتماعى يتخذ من التعليم قضية محورية فى ثقافة المجتمع، لأن التعليم هو الوسيلة المركزية لتحقيق التطور والتغير المطلوب فى مجتمعنا. ولهذا فإن التطور فى التعليم لا يمكن أن يتحقق إلا فى إطار ثقافى.

وهذا راجع إلى أن للتعليم مهمة مزدوجة تكمن فى: نقل المعلومات والحفاظ على القيم المتوارثة، وتمكين الشباب والأطفال من التغلب على الأوضاع المعوقة للتطور والتنمية، وذلك عن طريق إتاحة المجال أمام المواهب والقدرات الشخصية والإبداعية على التعبير الحر عن ذاتها بما ينفع المجتمع ويحقق له التقدم والتواصل بين أفراده.

ولا يمكن للتعليم أن يحقق غاياته إلا فى إطار من ثقافة المجتمع، وما يواجهه من تحديات فى عصر العلم والتكنولوجيا، وثورة المعلومات والفضاء والمواصلات والالكترونيات والاتصالات والهندسة الوراثية والمواد المخلقة والحواسب الآلية والذكاء الصناعى.

وتأسيسًا على ذلك، لا يمكن الفصل بين التعليم وكافة مجالات التنمية الشاملة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا، لأن التعليم هو الذى يقدم إلى الأمة الكوادر القادرة على مواجهة متطلبات التنمية بكافة مجالاتها، وهو الذى يسمح من خلال أساليبه التربوية بالتسامح الثقافى، والاختلاف فى الرأى، والقدرة على التفكير الناقد.

وهنا يأتى دور الثقافة باعتبارها الإطار المرجعى الذى يتحـرك التعليم مـن خلالـه، لتقديـم المواهـب الإبداعيـة والمهنيـة القـادرة علـى مواجهـة التحديات التكنولوجية والتعايش مع العصر فى كل متغيراته.

وهذه المواجهة لا تتم إلا من خلال تفجير طاقات المبدعـين وأصحـاب المواهب.

يـرى ترومـان أن الإنتـاج الموهـوب إبـداع، والمنتـج الإبداعـــى يتســم بـالتميز، ذلـك أن الموهـوب بـالقوة يتحـول إلى مبـدع بـالفعل وحيـث إن ما بالفعل متقدم على ما بالقوة، فالقـــدرة الإبداعيـــة إذن متقدمـــة علـى الموهبـــة، فلا توجد موهبة بغير إنتاج يؤكد أصالــة هـذه الموهبـة، فنحـن نقول عن هذا الموسيقى بأنه (موهوب) لأنه كتب (نوتة) موسيقية غاية فى الروعة والإبداع، ونقول عازف موهوب لأن عزفه يتسـم بـالتميز والأصالـة والجمال.

إذن فإن الذى يميز عمل الموهوب هو إنتاجه وإن هذا الإنتاج لابـد أن يتصف بخصائص، لعل من أهمها الجدة والقيمـة والاسـتمرارية والقابليـة للتطور، وهذه الخصائص هى نفسـها مـا نطلقـه علـى الإنتـاج الإبداعـى. فالإبداع لا معنى له بغير منتج يترجم هذا الإبداع، والموهبة لا وجود لهـا بغير منتج يعبر عنها.

ومن هنا فإن الطفل الموهــوب بـالقوة، أى الطفـل الـذى ينطـوى علـى قدرات كامنة ومتأصلة فى داخلـه، قـد تتحـول إلى إنتـاج إبداعـى، وقـد

يتحول هو إلى شخص مبدع بالفعل، بمعنى أنه قام بتفعيل موهبته، أى بتحويلها إلى أفعال إبداعية.

وتأسيسًا على ذلك فإن القدرة والإمكانية والموهبة ما هى إلا تنويعات على معنى واحد. هو الإبداع، والموهبة لا تتحقق إلا فى إطار من الإبداع، فالقدرة الإبداعية متقدمة على الموهبة.

وإذا ما أردنا للمواهب المتميزة فى العلم والتكنولوجيا والفنون والآداب بكافة مجالاتها التعبيرية أن تنطلق، أو أن تقدم إبداعاتها، فإن ذلك مشروط بنسق تعليمى يوفر مجالات لمواهب الإبداع أن تعبر عن نفسها فى الرياضة وفى الفنون وفى الآداب والموسيقى والغناء وما إلى ذلك.

وهنا نتساءل كيف يمكن للطفل أن يعبر عن قدراته الرياضية وأن يتيح لبدنه نموا سليما، ومعظم المدارس تخلو من ملاعب رياضية، حتى حصص الألعاب الرياضية غالبا ما تضم إلى حصص المواد الأكاديمية الأمر الذى أصبح ينبئ بجيل ضعيف البنية لا يستطيع أن ينافس عالميًا، وخير دليل على ذلك ما نلحظه فى البطولات الأولمبية والعالمية؟

كيف يمكن أن نفجر مواهب التلميذ فى الفنون ومعظم المدارس تخلو من مراسم وحتى ما كان يطلق عليه حصص الأشغال الفنية، لم تعد موجودة، كيف يمكن أن نفجر الطاقات الإبداعية الموسيقية ومدارسنا تركز على شىء واحد فقط، ولا شىء سواه، هو حشو أدمغة الطلاب بالمعلومات، بغير فهم أو تمثل أو هضم، توطئه لاسترجاع ما حفظه الطالب يوم الامتحان، الذى فيه تقاس قدراته على الحفظ.

كيف يمكن أن نفجر المواهب المبدعة فى كافة المجالات ونحـن نضع معيارًا واحدًا لقياس قدرات الطالب، وهو كم الدرجات التى يحصل عليها آخر العام. المعيار الوحيد لدينا هو كم الدرجـات، الأمـر الـذى أسـهم إلى حد كبير فى إجهاض قدرات الطالب ومواهبه الإبداعية.

لقد أصبحت الغاية هو الحصـول علـى أعلـى الدرجـات، وأمـام هـذه الغاية انهارت قيم كانت راسخة، حيث تفشـى الغـش فـى الامتحانـات الذى أصبح وسيلة من وسائل النجاح والحصول على أعلى الدرجات.

ولم يعد الغش فرديا، لقد أصبح جماعيًا فى بعض المناطق، الأمر الذى قد ينبئ بتدمير قيم عاش عليها المصرى، وتوارثها عبر تاريخه الطويـل، تلك القيم التى كانت تؤكد دوما على أصالة المصرى وأمانته وإصراره على الإتقان والإبداع فى عمله.

وبالرغم مما تبذلـه الدولـة ممثلـة فـى وزارة التعليـم لمحـاصرة ظـاهرة الدروس الخصوصية، فإن هذه الظاهرة ما زالت فى ازدياد، ولعل المسئول عن ذلك، تلك الاختبارات التى تكشف عمًا حفظه الطالب واستظهره من معلومات، ولا تتجاوز ذلك إلى قياس القدرة والموهبة والإبداع.

لقـد دفـع السـباق المحمـوم للحصـول علـى أكـبر قـدر مـن الدرجـات للالتحاق بالجامعة، الأسر إلى انتزاع الثقة بالنفس وبالقدرات من الأبناء، وخلعها على المـدرس الخصوصـى، الـذى عليـه أن يقـوم بتكثيـف المـادة العلمية فى (كبسولات) من أثير، تتلاشى بتلاشـى يـوم الاختبـار، وهـذا

وضع من شأنه أن يقتلع الثقة بالنفس وبالقدرات، ويعطل الإبداع الذى هو جوهر وجود الإنسان.

وهذا أمر يستلزم حوارًا قوميًا تشارك فيه جميع القوى السياسية والثقافية داخل المجتمع، لمعرفة الأسباب التى أدت إلى هذا التضخم فى الدرجات دون فاعلية علمية حقيقية.

ورغم هذا يظل نظام الامتحانات لدينا فى حاجة إلى انقلاب علمى يتيح للقدرات والمواهب والامكانات أن تنطلق وأن تزدهر، وأن تتفجر، ولهذا فنحن نريد تعليما يقوم على إبداع الموهبة ويكشف القدرات الخبيئة، تعليما يتجسد فى أعمال إبداعية فى المستقبل.

تعليما يقدم حلولاً إبداعية لمشاكل مصرية لم تعد تقليدية، فى عالمٍ المتخلفُ عن إيقاعه لا مكان له متميز على خريطة الدنيا.

والدول التى قطعت شوطا فى رعاية الإبداع والموهوبين، اهتمت أساسًا بتوفير البيئة الإبداعية للطالب من خلال نسق تعليمى متميز يقوم على الإبداع والموهوبين، ولا يقوم على الحفظ والتلقين.

ولعل فى تجارب بعض مدارس الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا واليابان ما ينهض دليلا على أن الاهتمام بالمبدعين والموهوبين هو أعظم استثمار فى عالم الإنسان.

أولاً: تقوم فلسفة التعليم فى الولايات المتحدة الأمريكية على النظر إلى الطفل باعتباره Bio-psycho-social organism، أى باعتباره

كيانا عضويا ونفسيًا واجتماعيا واحدًا، ومن ثم فهم يركزون على تنمية الطفل بدنيا واجتماعيا وحسيا وعاطفيا وجماليا وخلقيا، بحيث تتفاعل هذه الجوانب بعضها مع بعض؛ ومن تفاعلها تظهر موهبة الإبداع وتنضج، ولهذا فإن الاهتمام ينصب على ما يعرفه الطفل وليس على ما لا يعرفه، عما يستطيعه وليس على ما لا يستطيعه.

ثانيًا: التأكيد على النزعة البرجماتية فى تعليم الطفل، أى التركيز على أن التعليم يكون من خلال الفعل والعمل، ودور المعلم فى ذلك ينحصر فى التوجيه وتسهيل المعرفة، وليس فى نقل المعرفة وحشو الأدمغة بهذه المعلومات.

ولهذا فهم يركزون على ثقافة الإبداع وليس على ثقافة الذاكرة، فالمعلومات موجودة فى الكتب، وثورة المعلومات والانترنت والمعلوماتية قد جعلت من الميسور الحصول على المعلومة، إذا ما أتقن الطفل مهارات البحث عنها.

ثالثًا: وتقوم هذه الفلسفة على التعلم الذاتى، فالطفل يكوّن لنفسه رؤية عن العالم، وعن المجتمع الذى يعيش فيه، وعن المستقبل، وهذه الرؤية تتم من خلال تفاعله الخصب مع البيئة، وتجاربه مع موضوعات حقيقية.

رابعًا: تنمية الإحساس بالمشكلات وكيفية حلها، وهذا مردود إلى أن الإحساس بالمشكلات هو بداية الطريق إلى الإبداع، فكيف يبدع

الإنسان بغير إحساس بما يحيط به من مشكلات، أى بغير نزوع دائم للخروج من أسر المألوف الذى يمثل مشكلة إلى اللامألوف، أى إلى الجديد فى أى مجال من مجالات المعرفة الإنسانية.

خامسًا: الحرص على إكساب الطفل المهارات الاجتماعية التى تجعله يؤكد ذاته وإمكاناته، بحيث يكون قادرًا على المبادأة فى المواقف، معبرا عن نفسه، وعن مشاعره بحرية وتلقائية بغير خوف أو فقدان ثقة.

وهذه الفلسفة تقوم على النظر إلى الطفل باعتباره هوية متميزة فى سبيلها إلى التحقق، وإمكانية خلاقة، ومشروع وجود يمضى من حالات اللاتمايز إلى التمايز المستمر فى طريق التقدم والموهبة والإبداع.

سادسًا: التركيز على أن الطفل يتعلم على نحو أسرع عندما يكون نشاطه وعمله ذات مغزى. أى ذات قيمة، وجدوى، ومنفعة ودلالة.

وخلاصة هذه الفلسفة هو أن الطفل إمكانية مفتوحة، بيد أنها تظل خبيئة ومغلقة. تتعرف على نفسها، وتعبر عن إمكاناتها من خلال إتاحة كافة الحالات والفرص، أى من خلال بيئة إبداعية تثير كوامن القدرة والموهبة والإبداع، حسيًا ومعرفيًا وفنيًا ورياضيًا وأكاديميًا واجتماعيا.

المهم أن يتاح للطفل كافة المجالات التى تنصهر معه، ومن خلالها يكتشف هو نفسه المجال الذى يستطيع النبوغ فيه، وهذا الاكتشاف

يكون مرئيا محسوسًا لدى المشرفين على العمليـة التعليميـة، التـى يكـون فيها المعلم مجرد مسهل للتعليم وليس ناقلا للمعرفة.

والأطفال يتعلمون من خلال التفاعل الاجتماعى، ومن خـلال تفاعلـهم مع بعض، ومن خلال إحساسهم باختلافاتهم الفردية، وهـذا الاختـلاف يجعل الطفل يشعر بقيمة قبول الآخر المباين له فى الرأى والاعتقاد، ومن ثم يتعلم كيف يكون متسامحا رغم التباين.

والطفل يتعلم أيضا من خـلال التوحـد identification أى مـن خـلال التقمص الوجدانى مع الآباء والمعلمين، ولهذا ضرورة أن تمثل القدوة قيمة بالنسبة إلى الطفل.

ورغم محاولة بعض المدارس الأمريكية الاسـتناد إلى هـذه الفلسـفة فـى رعاية الموهوبين ولاسيما فى مدرسـة (مـارين) للأطفـال الموهوبـين، إلا أن تقرير التعلم لعام ١٩٩٤ أشار إلى أن برنـامج الأطفـال الموهوبـين لم يحقـق أهدافـه، حيـث لم توضـع أمـام الأطفـال الموهوبـين المـواد المحفـزة علـى الإبداع، والمواقف التى تثير التحدى الخلاق، وتحفز علـى الإبـداع، وأن القائمين على هذه المدرسة لم يبذلوا قصـارى جـهودهم لتحقيـق الأهـداف المرجوة.

وقدم التقرير بعض التوصيات التى تفيد فى تحسـين البيئـة الإبداعيـة للطفل الموهوب وذلك عن طريق:

- توسيع مجالات مفهوم المواهب ليشمل كافة جوانب الحياة.
- زيادة فرص تعليم أطفال الأقليات والمحرومـين مـن أصحـاب المواهـب المتميزة.

وللحقيقة فإن هذه التوصية تستمد دلالتها من طبيعة المجتمع الأمريكى باعتباره مجتمعا متعدد الثقافات، متعدد العرقيات، بيد أنه مجتمع واحد، ومن خلال انصهار هذه الثقافات وتلك العرقيات فى بوتقة واحدة، حققت هذا التقدم التكنولوجى العلمى والمعرفى فى المجتمع الأمريكى. ولهذا كان ضرورة التركيز على الأقليات والمحرومين، باعتبار أن الموهبة قيمة فى حدا ذاتها بغض النظر عن نوعية ثقافة الأقليات أو انتماءاتهم العرقية وإضافةً إلى ذلك كانت هناك توصية بزيادة أعداد التلاميذ الموهوبين فى هذه المدارس.

ومع ذلك تتبنى مدارس تعليم الأطفال الموهوبين سياسات واستراتيجيات تربط بين الأطفال الموهوبين وبين مجالات مواهبهم، وذلك عن طريق أدوات قياسية تمكنهم من الكشف المبكر عن الأطفال الموهوبين. ثم إعداد برامج رعاية تتناسب مع كل موهبة من حيث صقل هذه الموهبة وإثرائها علميا وأكاديميا.

ولعل من أهم الاستراتيجيات ما يكمن فى كيفية إعداد المعلم القادر على التعامل مع الموهوبين.

وهناك تباين فى الاستراتيجيات الخاصة بالتعامل مع الأطفال الموهوبين. أهمها يكمن فى:

- ضرورة دمج الموهوبين مع الأطفال العاديين، مع ضرورة النظر إليهم كأطفال حاصلين على درجات شرف عليا، وفى وجود الطفل الموهوب مع الطفل العادى تحفيز للعادى على النشاط الإبداعى.

وهذا النظام مطبق فى الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا.

- أما نظام عزل الموهوب فى فصول خاصة عن باقى التلاميذ، ومنحه زادًا علميا وفكريا يتفق مع قدراته، فهو نظام مطبق فى كثير من الدول مثل فرنسا وألمانيا واليابان، والهدف من ذلك هو إيجاد جيل من الموهوبين الذين يمثلون النخبة المتميزة فى إحداث التغيير المنشود فى المستقبل.

على أية حال، فمن الواضح أن هناك اهتمامًا بالغ الأهمية بالأطفال الموهوبين باعتبارهم أدوات الأمم المستقبلية فى إحداث التطور والتغير.

وثمة تجربة جديرة بالالتفات فى إنجلترا فى مدرسة (بيلين) Belin لتعليم الموهوبين الذين يتصفون بقدرات خاصة فى كثير من العلوم الاجتماعية والرياضية والطبيعية والبيولوجية.

ومن بين التجارب الأكاديمية التى تقدمها هذه المدرسة:

برنامج Success نجاح: وهو برنامج أكاديمى تجريبى يقدم لفصلين من فصول المدرسة بداية من عام ١٩٩٩، ويقوم بتنفيذه مركز تعليم الموهوبين، وجامعة كالجرى بالتعاون مع بعض المراكز العلمية بجامعة أيوا الأمريكية.

ويشترط للالتحاق بهذا البرنامج تمتع الطالب بقدرات خاصة تمكنه من الفهم واستيعاب الخبرات الأكاديمية المتقدمة.

- برنامج إدراكات Perceptions لتزويد الطلاب الموهوبين بخبرات متميزة ومبدعة فى مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية.
- برنامج عجائب الكون، حيث ينخرط الطلاب فى مواقف حية ومجسدة من خلال مناشط علمية تتصل بعلوم الفيزياء والجيولوجيا والكيمياء والبيولوجيا وإضافة إلى هذه البرامج تضمين الجوانب الرياضية.

وتستعين هذه المدرسة بالخبرات العلمية من مؤسسات بحثية وجامعية ومجتمعية، تساعد التلاميذ على الاكتشافات العلمية ، ومعالجة المشكلات بطرق إبداعية غير تقليدية.

وتحتوى برامج المدرسة على مواد أكاديمية وعلى مجالات غير أكاديمية لاستثارة كوامن المواهب لدى التلاميذ مثل الرسم والبناء والتصميم. إضافة إلى ذلك تعميق إحساس التلاميذ بالجوانب الاجتماعية والأخلاقية، وتشجيعهم على الخيال وعلى تلقائية التفكير الإبداعى بغير خوف أو تردد.

وهناك نماذج كثيرة لدول حققت وثبات فى طريق التطور والتغير.

وهذه الوثبات العلمية والتكنولوجية لم تتحقق إلا فى سياق من ثقافة مجتمعات تحض على الإبداع، ولا ترى بديلا عنه.

فهل ثمة علاقة بين الإبداع وثقافة المجتمع؟

الإبداع والثقافة

تؤكد مسيرة الإنسان الحضارية أن ثمة علاقة بين الإبداع وثقافة المجتمع، وأن الإبداع لا يتحقق إلا فى إطار ثقافة مجتمع تشجع على الإبداع وتحتض المبدعين وتتيح فرصا خلاقة أمام المواهب للتعبير عن إمكاناتها الثرية والمتنوعة.

والإبداع إفراز للعقل وللثقافة التى تمثل البيئة الإبداعية معًا!

والعقل يأتى أولاً والثقافة فى المحل الثانى!

فالعقل ينبوع القدرة والإمكانية والموهبة، ثم إنه واحد، لأنه جوهر وجود الإنسان!

ولكن الثقافة متعددة! لأنها محكومة بالموقع، مسكونة بثوابت الجغرافيا ومتغيرات التاريخ وانساق القيم.

والعقل قد يعيش فى بيئة مخصبة للإبداع، فتتجلى قدراته الخلاقة وصروحه التفسيرية، وقد يعيش فى بيئة ، معوقة للإبداع، فتخبو إمكاناته وقدراته، ويستسلم للخرافة والأسطورة وأساليب التفكير اللاعقلانى.

وللحقيقة فإن الخرافة والأسطورة لا تجدان لهما موقعًا إلا فى غيبة العقل وضمور التفكير العلمى.

وهذا راجع لوجود ثقافات مقاومة للإبداع، مضادة للعقل، رافضة للتطور، مستفيدة من الخرافة والجهل.

وتاريخ الحضارة شاهد على وجود تلك المقاومة العنيفة للتطور، فقديما أعدِمَ سقراط، وحوكم جاليليو، وأحرِق برونو، فوق كتبه، وأحرقت كتبُ ابْن رشد.

ورغم قوة الثقافة المضادة للتطور، فإن الإبداع قد حقق انتصارات مذهلة في كثير من الأحيان، لأنه تعبير عن قوة العقل ولمعان المعرفة، وضرورة التنوير للتقدم إلى الأمام.

فعاش سقراط رمزًا للبحث عن الحقيقة، وعن المعنى والقيمة والمثل، وتواصلت اكتشافات جاليليو حتى تمكن الإنسان من غزو الفضاء بفضل الثورة العلمية والتكنولوجية التى مهدت لها أفكار فلاسفة عصر التنوير، وما زال ابن رشد رمزا من رموز التنوير الإسلامى، فى إعمال العقل وفى القدرة على التأويل.

وتأسيسًا على ما سبق فثمة علاقة بين الإبداع والثقافة المثلة للبيئة الإبداعية وخير مثال على ذلك العالم المصرى الفذ أحمد زويل، فهو مصرى المولد والمنشأ تلقى تعليمه حتى مرحلة الماجستير فى مصر، ثم يمم وجهه شطر الولايات المتحدة الأمريكية، وهناك التقى عقله المبدع مع تلك البيئة المخصبة للإبداع، فكانت اكتشافاته العلمية فى مجال (الفيمتو ثانية)، وفى مجال الفيزياء، تلك الاكتشافات التى من شأنها أن تحقق للإنسان نقلة كيفية علمية فى كافة مناشط العلم، فى الكيمياء والفيزياء والطب والهندسة الوراثية، وعلوم الفضاء والليزر وغير ذلك من العلوم.

وباكتشافاته العلمية حصل على جوائـز عالميـة، أرفعـها قيمـة جـائزة نوبل.

وبالرغم من أن المجتمع الأمريكى ، مجتمع متعدد الثقافـات، متعـدد العرقيات إلا أنه مجتمع واحد، انصـهرت فيـه عرقيـات شـتى وثقافـات متباينـة، فـى بوتقـة إنصـهار واحـدة تؤمـن بـالعلم وبالمنــهج العلمــى، والمبادرات الفردية الخلاقة، على نحو يتيح فرصًا للمبدعين أن يصلوا إلى أقصى ما تستطيعه طاقاتهم وإمكاناتهم العلمية.

والإبداع العلمى والفكرى بكل مجالاته، شىء مفارق ومجـاوز للحـدود العرقية والثقافية فى مجتمع يؤمن بالديمقراطية وبحريـة الفـرد، بـإطلاق المواهب الكامنة.

إضافة إلى ذلك فإن التعليم عندهم مدعوم برجـال الأعمـال والمؤسسـات العملاقـة، والشـركات الكـبرى، ولهـذا ينفقـون علـى التعليـم بسـخاء، ويقدمون قروضًا لطـلاب الجامعات كى يكملوا مشـوارهم العلمــى، وكثـيرًا ما تسقط البنوك هذه القروض عن كاهل الطلاب بعد تخرجهم.

المهم أن المجتمع يشكل منظومة مترابطة تمثل بيئـة علميـة وإبداعيـة غير جامدة بل قابلة للتطور والتعديل والتغيير إلى مـا هـو أفضـل، فليـس هناك شىء مطلق فى مجال العلم، فكل شــىء نسـبى، وكـل شـىء قـابل للتطور، وللتغيير.

والعلم بطبيعته نسبى غير مطلق، وهـذا جوهـر تطـوره المسـتمر. فكـل شىء قابل للتغير، والمجتمع الأمريكى اسـتجاب لتحديـات التغيـير فـى

التعليم ولاسيما بعد غزو المركبة الروسية (أسبونتك) للفضاء، وإحساسهم بالتخلف وبالخطر، فكان تقريرهم العلمى Nation at Risk يعكس الوعى بالتطوير فى التعليم من أجل التقدم والتغير، على نحو يتجاوز فيه المجتمع التباين الثقافى والتباين العرقى إلى وحدة الوجود والمصير والهدف المشترك والانتماء الواحد.

ولعل التجربة اليابانية فى التقدم التكنولوجى والعلمى الباهر خير دليل على أن الإبداع لا يتحرك إلا فى إطار هوية ثقافية تشجع على الإبداع وترسخه كمنهاج حياة.

ولعل أهم ما يميز الثقافة اليابانية أنها تستمد مقوماتها من أنماط ثقافية راسخة التكوين، شكلتها عوامل ثقافية وعرقية وسلالية، منحت الهوية الثقافية اليابانية، طابعها الفريد والمتميز، باعتبارها جزءًا من ثقافة صينية ضاربة بجذورها فى عمق التاريخ، استمدت مقوماتها من حضارة صينية رائدة، ولهذا فإن المكونات الأصيلة لهذه الهوية تتسم بثبات بلغ حد الرسوخ Stereotype، مَفعِمَ بتمركز عرقى وسلالى وقيمى، يجعل من الأسرة معنى مرجعيًا، ومن النزعة الجماعية وروح الفريق قيمة قصوى فى العمل، ومن هنا فإن تحقيق الفردية لا يتم إلا فى إطار الجماعية حتى يبلغ الفرد إلى تقدير الذات، ليس على المستوى الفردى فحسب، بل على المستوى الجماعى أيضا، وأن التمسك بالموروث الثقافى والالتزام القيمى بالتقاليد هما دافعان للتقدم والإبداع.

فثمة انتماء رفيع المستوى، وثيق الارتباط بالموروث الثقافى، يبلغ حد الانتحار عشقًا للثقافة اليابانية، ويقوم على الوعى بالتميز العرقى وعلى اعتقاد راسخ بأن الإنجاز لا يقوم إلا على اعتماد متبادل، وتعاون ملازم، وروح فريق هى جوهر كل عمل.

وهذان النموذجان - الأمريكى واليابانى - متباينان، الأول وهو النموذج الأمريكى قائم فى مجتمع متعدد العرقيات، متعدد الثقافات، بيد أنه استطاع أن يصهر هذه العرقيات والثقافات فى بوتقة واحدة تستمد مقوماتها من روح الفريق والتسامح رغم التباين، واحترام الأقليات، وتشجيع المبادرات الشخصية والإيمان بأن الإبداع ليس له حدود عرقية أو جغرافية أو عقائدية.

أما النموذج الثانى فهو يقوم على الاعتزاز بالموروث الثقافى لأن مقوماته مستمدة من عمق تجربة الزمان فى الموقع والمكان.

والشىء الذى يجمع بين التجربتين هو: عمق الانتماء وروح الفريق والإبداع القائم على الاعتماد المتبادل، وترسيخ حرية الفرد، وتعميق إحساسه بهويته من خلال عمله.

والسؤال الآن: ماذا عن الهوية الثقافية المصرية؟

وهل تستطيع الهوية الثقافية المصرية أن تكون إطارًا يفرز الإبداع ويتيح للمواهب أن تتفتح، وللإمكانات أن تنطلق؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال يحسن أن نعرض لمعنى الهوية ولمعنى الثقافة!

أولاً : الهوية: Identity

الهوية مفهوم له دلالته اللغوية واستخداماته الفلسفية والاجتماعية والنفسية والثقافية فقد استخدم هذا المفهوم على أنحاء شتى للتدليل على الهوية الفردية والهوية الجماعية والهوية العرقية والهوية الثقافية.

ولفظ الهوية مشتق من أصل لاتينى ويعنى أن الشيء نفسه Sameness أو الشيء الذى هو ما هو عليه، على نحو يجعله مختلفاً لما يمكن أن يكون عليه شيء آخر.

وعلى أية حال فإن هوية الشيء تعنى ماهيته، أى جوهره ولبابه الذى يعبر عن حقيقته فى كل منفرد لا إشراك فيه.

ولا يولد الإنسان وهو مزود بالهوية بالمعنى القومى، بل يكتسبه، ولهذا فإن الهوية القومية مفهوم اجتماعى نفسى يشير إلى كيفية إدراك شعب ما لذاته، وكيفية تمايزه عن الآخرين، وهى تستند إلى مسلمات ثقافية، مرتبطة تاريخيا بقيمة اجتماعية وسياسية واقتصادية لمجتمع ما.

ومن هذه الزاوية فإن الهوية الثقافية نسبية غير مطلقة، قائمة فى الزمان، غير خارجة عن نسيجه، وأية ثقافة هى - مثل كل شيء استثمار متميز فى الزمان، ذلك أن الزمن شيء نادر يمكن استثماره وقد تتصف بالجمود، وقد تتصف بالحيوية والقدرة على التعايش مع متطلبات العصر ومتغيراته.

ثانياً : الثقافة: Culture

من أكثر الكلمات استخداما، ومن أشدها غموضًا وقد يرجع هذا الغموض إلى تعدد معانى الثقافة وتباينها فى كثير من الأحيان.

بيد أن الأمر الذى لا ريب فيه أن لكل مجتمع ثقافة تميزه، وتبلور معتقداته وقيمه ومبادئه وعلاقاته الأجتماعية وأنماط سلوكه وتحيزاته الأيدلوجية.

وقد تتشابه بعض المجتمعات فى بعض أشكال الثقافة وأنماط السلوك، غير أنها تتباين عند فحص الخصوصيات المميزة لهذه الثقافة.

وتتضمن معنى كلمة الثقافة سواء فى أصولها اللغوية العربية، أم فى اللغات الأخرى مجموعة من القيم يتمثل بعضها فى الإيمان والطهارة والجمال والفطنة والتقدم والإتقان فبدون هذه القيم لا يمكن للإنسان أن يفلح فى زراعة الأرض أو يقيم العبادة بشعائرها وأماكنها .

ومن هذه الاشتقاقات اللغوية، تقف الثقافة عند المستوى الرفيع من التكوين الإنسانى من حيث هي صقل وتهذيب للسلوك وتنمية أخلاقية وروحية له، أو بأنها ما ينتجه العقل أو الخيال الإنساني، وتكون وظيفتها إعداد وتهذيب وصقل للروح والعقل معًا.

وثمة تعريف شائع على المستوى الاجتماعي ينص على أن الثقافة ذلك الكل المركب الذى يتضمن المعرفة والاعتقاد والفن والقانون والأخلاق والعرف وأية قدرات أو عادات يكتسبها الفرد بوصفه عضوًا فى المجتمع.

وعلى أية حال فإن الثقافة هى الكلمة وبالكلمة أصبح الإنسـان إنسـانا والثقافة ثقافة

الثقافة هى المكونات الفريدة التى تميز شعبًا وأمة عن غيرها من الأمم.

الثقافة كائن حى اجتماعى نام ومتطور لا يعرف الجمود ولا يحيا بغير سند من موروثات تراكمت عبر العصور.

ومن كل ما سبق نستخلص بعض الأسس التـى يسـتند إليـها تعريـف الهوية الثقافية وما تنطوى عليه من معان:

أولاً: أن تعريفات الهوية والثقافة سواء فى أصولهما اللغوية أمْ المعجميـة تكاد تكون نقطة التقاء بين الشرق والغرب.

ثانيًا: إن الهوية هى ماهية الشىء أى جوهره الذى يعبر عن حقيقته.

وأن هوية الشىء تتحدد بالصفة التى تنعت عليـه، بحيـث تصبـح الصفة والموصوف كلا واحدًا، يدل معناه على شىء كلى يميزه عـن غيره.

وتأسيسًا على ذلك فـإن الهويـة تعنـى مجموعـة الصفـات الجوهريـة والثابتة فى الأشـياء والأحيـاء، فللمكـان هويتـه الخاصـة، كمـا للإنسـان هويته المتفردة عن غـيره مـن النـاس، ومـن ثـم فـإن الثوابـت الجغرافيـة والمتغيرات التاريخية والموروثات الثقافية عناصر مكونة للهوية.

ثالثًا: أن الهوية الثقافية هى الرمز أو القاسـم المشـترك أو النمـط الراسـخ الذى يميز فردًا أو مجموعة من الأفراد أو شـعبا مـن الشـعوب عـن غيره.

ومن خلال هذه الأسس يمكن تحديد الهوية الثقافية المصرية بأنها هوية ثقافية تتسم بحيوية دافقة، ووحدة عضوية لا شتات فيها، قديمة وغائرة فى عمق الزمان، شكلتها ثوابت جغرافية ثرية التنوع، و(مُتغيرات تاريخية) الرجوع إليه يتيح فهما أعمق للمستقبل، و(تراث مركب) تسيطر عليه قوة الاعتقاد، وديناميكية فى التفاعل بغير جمود أو انغلاق، وتجانس فى البشر متواصل بتواصل حلقات الزمان، ووسطية فى السلوك تترجم معانى التسامح رغم التباين فى الأعراق والأنساب والمعتقدات، فانساق القيم والعادات والتقاليد ظلت راسخة رغم تعدد الغزوات ورغم التحول من دين إلى آخر، ورغم تغير اللغة من هيروغليفية إلى قبطية إلى عربية.

وتمثل الهوية الثقافية المصرية قطبا له جاذبيته، سواء فى العصور القديمة، أم فى عصرنا الحالى.

وهذه الجاذبية القطبية هى التى منحت مصر قيمة الدور التاريخى عبر عصورها القديمة والحاضرة أيضا فكانت - وما زالت - محركة للأحداث ومركزا للعلم والحضارة، يؤثر فى الأمم من حوله، ومطمعا للغزاة من الشمال والجنوب والشرق والغرب، بيد أنها كانت وما زالت - تملك خاصية الاحتواء والامتصاص والتمصير Egyptianizing لدرجة بلغ الولع بهذه الثقافة حد الهوس Egyptomania. كما يقول (برنال) الذى يوضح فى كتابه (أثينا السوداء) أن الحضارة المصرية أصل الحضارة الإغريقية، وأن ٢٠ - ٢٥ بالمائة من اللغة الإغريقية مستمدة من اللغة الهيروغليفية، وأن هيرودت هو أول من

أعلن أن أصل جميع الآلهة الإغريقية مصرى، وأن الأساطير المصرية هـى أصل الأساطير الإغريقية.

والهوية الثقافية المصرية متعددة الأبعاد، ثرية المحتوى بما تملكه من لغة ودين وآداب وفنون رفيعة المستوى وتقدم معمارى وهندسى وفلكى ورياضى قد جعل من مصر قبلة لفلاسفة العصور القديمة ولاسيما اليونانيين. وقبله للأنبياء ومسرحًا لعبور رسالات السماء.

يقول طه حسين: إن تبادل المنافع بين العقل المصرى والعقل اليونانى فى العصور القديمة قد كان شيئا يشرف به اليونان، ويتمدحون به فيما يكتبون من نثر، فمصر مذكورة أحسن الذكر فى شعر القصاص اليونانيين وهى مذكورة أحسن الذكر عند هيرودوت ومن جاء بعده من الكتاب والفلاسفة.

وكان اليونانيون فى عصورهم الراقية كما كانوا فى عصورهم الأولى، يرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة وفى فنونها الرفيعة بنوع خاص.

ثم جاء التاريخ فلم يكذب شيئا من هذا ولم يضعفه، بل أيده وقواه، فالتأثير المصرى فى فنون العمارة والنحت والتصوير عند اليونان شىء لا يجحد ولا يمارى فيه، والتأثير المصرى تجاوز الفن الرفيع إلى أشياء أخرى تمس الفنون التطبيقية، وتمس الحياة العملية اليومية وقد تمس السياسة أيضا.

تلك بعض مظاهر الهوية المصرية التى أقامت حضارتها على العلم والتكنولوجيا والوعى بالزمن كشىء نادر يمكن استثماره. فقد كانت

اكتشافات المصريين القدماء متجاوزة لحدود الزمان فلقد عرف المصريون القدماء الذرة والجاذبية الأرضية وغيرهما من الحقائق العلمية المعاصرة.

ولهذا يقول اسحق نيوتن فى كتابه المبادئ الرياضية Princepal Mathmatica بأن نظرية الذرة ونظرية مركزية الشمس والجاذبية الأرضية كانت نظريات معروفة لدى المصريين.

يقول نيوتن: لقد كان الرأى عند أولئك الذين شغلوا أنفسهم بالفلسفة وأن النجوم المرصودة تقف فى الأجزاء العليا من العالم دون حركة، وأن الأرض باعتبارها واحدًا من هذه الكواكب تتخذ مدارًا مستويا حول الشمس وقد كان المصريون هم أقدم من راقبوا السماء، وعنهم انتشرت هذه الفلسفة إلى العالم.

فقد كانت مصر قبلة الفلاسفة والمفكرين والعلماء فى العالم القديم فعلى يدى علمائها تتلمذ أفلاطون وصاغ فيثاغورث وأقليدس نظرياتهما فى الهندسة وتتلمذ أفلوطين وهبياتيا وغيرهما من الفلاسفة والمفكرين.

وقد أقامت حضارتها وبلورة هويتها الثقافية من خلال قدرتها المبدعة على الاستجابة لتحدى نهر عظيم كنهر النيل يحتاج إلى ترويض لخدمة الحضارة والإنسان.

ويصور تيوينبى Toynbee هذه الاستجابة المبدعة لتحدى النهر بقوله: إن الاستجابة الخلاقة للتحدى هى فقط التى تنبت الحضارات والمدنيات، وقد كانت الاستجابة الجماعية لتحدى نهر عظيم مثل النيل

هـى التـى خلقـت المجتمـع ومصـر الحضـارة وهـذا راجـع إلى أن نوعيـة التفاعل بين البشر وقوى الطبيعة، وليس قوى الطبيعة وحدهـا هـى التـى ينبثق عنها المجتمع والحضارة، ولو كان النيل هو المسئول الوحيـد عـن صنع مصر وحضارتـها لكـان قـد صنـع حضـارات أخـرى مشابهة علـى امتداده الطويل، ولكن هذا لم يحدث.

وتلك حقيقة فالتحديات الكبرى ، هى التى تصنع الشعوب العظيمـة إذ يتحول المسـتحيل - بـالوعى والإرادة والعلـم والبيئـة الإبداعيـة - إلى ممكن ومتاح.

ونحن نعيش تحديات كبرى تحديـات اقتصاديـة واجتماعيـة وعلميـة وتكنولوجية وثقافية وتنموية.

وكل هذه التحديات تحتاج إلى حلول إبداعية، إلى حلول غير تقليدية لأنـها مشـكلات غـير تقليديـة، فـى عـالم تجـاوز التقـدم العلمـى والتكنولوجـى كـل قـدرة علـى التنبـؤ. فـى عـالم تـهيمن عليـه مفـاهيم الكوكبيـة والاعتمـاد المتبـادل بـين الأمـم والشـعوب والإبـداع لمـن أراد الموقع المتميز فى العـالم، فـالإبداع قـوة، والإبـداع قـوة ماليـة واقتصاديـة أيضا.

هذه هى ثقافتنا، فلماذا لا نتخذ منها أساسًا للانطلاق إلى عالم الغد؟

فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى معظم الدول الأوروبية ينفق رجـال الأعمال والمؤسسات التجارية والبنوك على التعليـم وعلـى مراكـز البحـث

العلمى، وعلى المشاريع العلمية المختلفة فى كافة جوانب المعرفة الإنسانية.

ورغم أن التعليم فى هذه الدول مرتفع التكلفة فإن البنوك والشركات تعطى طلاب العلم منحا دراسية للإنفاق على تعليمهم ويتم استردادها عند تخرجهم من الجامعة، وفى كثير من الأحيان تسقط البنوك هذه المديونية عن طلاب العلم.

إن انتماء رجال الأعمال والشركات والمؤسسات لبلادهم كبير وعميق. فهم ينفقون على العلم والمراكز البحثية وعلى المشروعات العلمية فى كافة الجوانب.

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن:

لماذا بعض رجال الأعمال فى مصر يقترضون من البنوك، ويحولون هذه القروض إلى مشروعات ويستثمرون ويربحون ولكنهم لا يعطون أى شىء؟.

لقد منحت الدولة لرجال الأعمال من التسهيلات ما لم تمنحه أمة لأبنائها كى يستثمروا ويحققوا النقلة الاقتصادية على طريق الاقتصاد الحر وآليات السوق.

ولكن الغريب أن البعض منهم يقترض ليودع ما اقترضه فى بنوك أخرى غير مصرية ويستثمر أموالا ليست أمواله، فى بلدان غير بلده.

وتلك أزمات ضمير أخلاقى وقومى لا توفر بيئة صالحة للإبداع.

ثم إن الإبداع يحتاج إلى انقلاب فى العملية التعليمية، وهذا الانقلاب التعليمى لا يمكن أن يتحقق إلا إذا أدركنا أننا فى خطر.

وأننا فى حاجة إلى حوار تشارك فيه كافة القوى الوطنية والعلمية والأكاديمية لمعرفة الأسباب التى أدت إلى تضخم فى الدرجات دون فاعلية إبداعية تذكر، تترجم هذا التفوق فى التحصيل الدراسى. هل هو نظام الامتحانات الذى يرسخ طريقة الحفظ والتلقين والتذكر؟ أم هو سوء إعداد المعلم الذى لم ييسر المعرفة ويوضح قيمة المنهج العلمى السليم؟ أم هو كثافة الفصول على نحو لا يسمح للعلمية التعليمية أن تسير على نحو مبدع؟ أم هو ضآلة ما ينفق على التعليم بالقياس لدول أخرى فى المنطقة كإسرائيل مثلا.

بالضرورة هناك مجموعة من العوامل، الوعى بها ، وتوضيحها وعرضها هو بداية الطريق إلى تجاوزها، فى بلد يحتاج للطاقات المبدعة، وللأطفال الموهوبين، وللتعليم الذى يقدم حلولا غير تقليدية لمواجهة مشكلات غير تقليدية.

تنمية الإبداع والموهبة

كيف يمكن تنمية الإبداع؟.

هذا هو السؤال. وهو سؤال سهل وصعب فى آن واحد؟!

تكمن سهولته فى وضوحه، أما صعوبته فتكمن فـى كيفيـة بلـوغ هـذه الغاية.

ولعل فى هذه الحكاية مـا يلقـى الضوء عـن كيـف يتـم القبـض علـى الأفكار وأسرها فى سجون الإلف والاتباع والتقليد.

طُلبَ من أطفال الصف الثانى من المرحلة الابتدائية رسـم رأس إنسـان وانشغلَ الأطفال برسم المطلوب لفترة زمنية، وبعدها ذهب طفل إلى المعلمة وقال لها لدى مشكلة، وبعد أن شرح المشكلة، اكتشفت المعلمة أن الطفـل يرسم ما بداخل الرأس! فإذا بها تثور فى وجهه وتـأمره بـأن يكـف عـن الرسم حتى يرى الآخرين وماذا رسموا. ثم قالت: انظروا مـاذا رسم هـذا النابهـة. إنـه ليـس قـادرًا علـى رسم رأس بمعنـى الكلمـة. هـل كـان قادرًا؛ بالطبع لا. إنه خالف الأطفال الآخرين ورسم ما بداخل الرأس.

ثم طلبت منهم أن يرفعوا رسوماتهم لكى يراها الطفـل المغبـون: قائلـة انظـر أيها النابهـة إلى الـرأس وكيـف تكـون، كلهـم رسـموا المطلـوب إلا أنت.

ونظر الأطفال إلى زميلهم بسخرية وصياح، أما الطفل المهان فلم يكن فى مقدوره إلا الجلوس خجلا وكأنه ارتكب إثما كبيرًا. وما تعلمه هذا الطفل أكبر بكثير مما تعلمه عن كيفية رسم الرأس على النحو المطلوب. لقد تعلم أن الأفكار غير المألوفة ليست مطلوبة، وأن الاستكانة للمألوف هو الطريق الآمن، وأن الطريق المستقيم هو الطريق الذى اعتاده الكل، وأنه من الخطورة بمكان أن تكشف للآخرين أنك ترى الأمور بمنظور مختلف عن رؤيتهم، فهذا الطفل قد انحرف عن المتوقع وفشل فى المسايرة، فرؤيته كانت مُباينة لرؤية الأطفال الآخرين، إذ كانت لديه فكرة مذهلة. ورؤية جديدة، ووعى تجاوز المرئى إلى اللامرئى، وقدرة جعلته يتصور ما يمكن أن يكون خلف الملامح، وخيال تجاوز ما هو مألوف إلى ما هو غير مألوف.

ومنذ متى كان الإبداع سباحة مع التيار وسيرًا مع المألوف.

ودلالة ذلك: أن المدرسة من الممكن أن تكون بيئة إبداعية، تلتقط وتكتشف الموهوبين والمبدعين من التلاميذ الصغار، وأن تكون مجهضة للإبداع وللموهوبين.

الإشكالية الرئيسية هو في كيف يمكن للمدرسة أن تصبح بيئة إبداعية لتلاميذها وهى تفتقر إلى المدرس المبدع، الذى يستطيع أن يتعامل مع أطفال مبدعين وموهوبين.

ولذا ينبغى إعداد المدرس إعدادًا علميًا وأكاديميًا يمكنه من اكتشاف المبدعين من التلاميذ وإتاحة الفرص أمامهم للتعبير بغير قهر أو إرغام

أو سخرية أو عدم اكتراث من قدراتهم الإبداعية. فلو أن المعلمة التى سألها التلميذ الصغير عن المشكلة التى يعانيها عند رسمه ما بداخل الرأس وليس فى خارجها، وشجعته على تخيل ذلك، وعلى محاولة ترجمة ما يتصوره، لتعلم هذا الطفل أن الخيال أب العلم، وأن العلم ثمرة للخيال الإنسانى الخصب، وأن الإبداع والقدرة عليه هما أكرم ما زود به الإنسان من إمكانات ليكون له التمايز عن باقى الكائنات، وأن المواهب تستحق الرعاية والاهتمام حتى تنمو وتزدهر.

وعلى الرغم من أن الأطفال المبدعين والموهوبين كثيرا ما يثيرون المتاعب لمدرسهم بتساؤلاتهم وببحثهم عن الحقيقة وركونهم إلى الخيال، فهناك من المعلمين - كما أكدت دراسات كثيرة فى الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا وغيرهما - من يشجع المبادرات الشخصية والإبداع والسلوك الإبداعى.

ولعل نقطة البدء فى الإبداع عند الطفل الموهوب هى (الدهشة) لأنها بوابة الدخول إلى عالم الإبداع، فكيف يكون الإبداع بغير دهشة، يترجمها التساؤل عن كيف وماذا ولو. عن السبب وعن العلة والمعلول وما هو كامن وراء الأشياء، وكيفية إعادة تنظيم الأشياء.

وعلى هذا فإن الجدة محور الإبداع ومركز كل موهبة، فكيف تكون موهبة بغير جديد تقدمه فى مجال الموهبة التى تتمتع بها. ثم إن القدرة على تقديم الجديد من شأنها أن تثير الدهشة.

ولنا أن نعلم أن الدهشة هى التى صنعت حضارة الإنسان، وأن التساؤل هو الذى يسهم فى التطور.

والطفل فى حاجة إلى أن يتعلم كيف يندهش على نحو فعال، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال إتاحة المجالات المتنوعة علميا وتكنولوجيا وفكريا وفنيا وتصوريًا أمام التلميذ.

وتنوع هذه المجالات أمام الطفل يثير لديه التساؤل، المحفوف بالبحث عن المعرفة، وعن محاولات الإجابة عن تساؤلات يطرحها ثراء هذه المجالات العلمية المتنوعة.

والسؤال هنا: كيف يمكن إعداد معلم لديه القدرة على الوعى بالعملية الإبداعية لدى الطفل؟ وكيف يمكنه اكتشاف المواهب لدى الأطفال؟ وكيف يمكنه رعاية مثل هؤلاء الأطفال؟

إن إعداد مثل هذا المعلم يستلزم:

- أن يكون لدى المعلم مخزونا معرفيا متنوعًا يمتد ليشمل موضوعات شتى فى مجالات علمية وفكرية متنوعة.
- أن يتمتع بمعرفة مكثفة بمجال أو أكثر من مجالات المعرفة.
- أن يكون لديه قدرة على التعرف على المشكلات واختراعها.
- أن يكون لديه خيال فعال، وقدرة على إثارة خيال التلاميذ.
- أن يكون لديه مهارة تكوين علاقات إبداعية وأشكال جديدة من التفكير الإبداعى.
- أن يتمتع بالقدرة على تيسير المعرفة وتوصيلها.
- أن يكون معلما مبدعًا، مطبوعًا على التدريس، عاشقا له.

ومثل هذا المعلم يمكنه بيسر تأصيل روح الفريق بين تلاميـذه، ويكـون قادرًا على دفعهم إلى التعمق فى المشكلات، مهتما بأسئلتهم، مشجعا لهم على مزيد من التساؤل، معبئا تلاميذه بطاقـة نفسـية تمكنـهم مـن تحمـل إحباطات الحياة.

والمعلم لا يتحرك بمفرده، إنما يتحرك ضمن نسق تعليمي، قـد يكـون إيجابيا، فيتيح فرصا خلاقة للإبداع، وقد يكون على الضد من ذلك.

والمدرسـة ليسـت مؤسسـة تعليميـة منعزلـة عـن المجتمـع، إنمـا هـى انعكاس للمجتمع، تكمن أهميتها فى نقل ثقافة المجتمع وتمكين الشباب والأطفال من التغلب على الأوضـاع المعوقـة للتطـور والتنميـة، وذلـك عـن طريق إتاحة المجال أمام الاهتمامات والقدرات الشخصية والإبداعية على التعبير الحر عن ذاتـها بمـا ينفـع المجتمـع ويحقـق لـه التقـدم ولأفـراده التواصل والانتماء.

ومهمة المدرسة جليلة وكبيرة، لا تكمن فى ترسيخ ثقافة الذاكرة بقـدر ما تكمن فى إثارة حب الاستطلاع والتفكـير الإبداعـى، وهـذا يسـتلزم أن تكون البيئة المدرسية مزودة بمواد متنوعة ومثيرة للإبداع.

- أن تطلق المدرسة - كبيئة ينبغى أن تكون إبداعية - العنان لأبنائـها كى يكونوا تلقائيين، وعلى المستوى النفسى فإن التلقائيـة - بـدون خوف أو إحساس بالقهر أو الإرغام - معيار للسواء النفسى، ومظهر من مظاهر توكيد التلميذ لنفسه، ولإمكاناته ولقدراته ولمواهبه.

وهذا يستلزم أن نكف عن إعطاء حلول جاهزة للمشكلات، بل يجب أن يترك للتلميذ حرية اكتشاف المشكلات وإثارتها وكيفية إيجاد السبل لحلها.

● أن تكون المدرسة مصدرًا قيميًا يتعلم من خلاله التلميذ التسامح رغم التباين، التسامح إزاء التناقضات، التسامح إزاء الغموض، وهذا راجع إلى أن غيبة التسامح يعنى غيبة المرونة النفسية والعقلية وهما أساس كل سواء فى الحياة. وغيبة المرونة النفسية والعقلية معناه جمود الفكر وثنائية التفكير القطعى، الذى لا يقيم تواصلا بين الناس، ولا بين الأفكار، ويصبح كل فرد لائذًا بنفسه، منغمسا داخل أفكار مغلقة وجامدة وقطعية ومتطرفا، وما التطرف وما الإرهاب إلا نتيجة لجمود الفكر وانغلاق العقل، وغيبة المرونة العقلية والتكيفية، فمن خلال الوعى والمرونة يدرك كل فرد أن لكل حجة حجة مضادة لها ومساوية لها فى القوة. والنتيجة ضرورة امتناع الإنسان على أن يكون جامدًا ومتصلبًا فى أفكاره.

وتلك مشكلة معرفية ونفسية أيضًا، والسؤال كيف يمكن للمدرسة أن تعمق التسامح بين التلاميذ.

ولن يتحقق ذلك إلا عن طريق ممارسة الطفل ومعايشته لكيفية قبول الآخر.

وأنه ضعيف بنفسه قوى بالآخرين، وأن الإبداع يكون أعظم حينما يتصف بالفريقية، وأن الحوار يخلق تواصلات بين الأفراد، وأن المصريين

يعيشون في بوتقة انصهار واحدة، هي مصر أولا وقبل كل شيء، وأن كل تلميذ ليس مسئولا عن نفسه فحسب، بل مسئولا عن بلده، منتميا إليها معبرًا عن عمق انتمائه إليها، قادرًا عن التعبير عن حقوقه بحرية وتلقائية، يتمتع باستقلال ذاتى، يمارس تعليمه فى بيئة صحية إبداعية تفجر الإمكانات والقدرات الخبيئة والمواهب المتميزة، فكل طفل هو طفل موهوب، وإن اختلفت جوانب الموهبة ومجالاتها ودرجاتها ومستوياتها بين الأطفال، وأن المواهب تعتمد على قدرات عليا، وأن هذه القدرات يمكن أن تنمى إذا توافرت الظروف والبيئة التعليمية التى تسمح بهذا النمو.

والبيئة التعليمية الإبداعية هى التى تؤكد على التباين الذى هو معيار التسامح!

كتب (بيترهاندكة) مسرحية بعنوان (كاسبر) بمعنى البلياتشو أو (الأراجوز).

فى البداية يجلس البلياتشو صامتا دون حراك على خشبة المسرح، ومحاطا بالكورس الذى يقوم بدور الملقن، والملقن يهمس للبلياتشو بنفس الجمل المعتادة، ويقوم هو بدوره وبترديدها فى البداية بتباطؤ، ثم يزداد حماسة بعد ذلك، فيردد هذه الجمل الملقنة عن ظهر قلب، وفى نهاية المسرحية يجد نفسه وسط مجموعة كبيرة من الأرجوزات، مرتدين نفس الثياب التي يرتديها، ويتحركون كما يتحرك هو، وينطقون نفس الجمل التى أخذ هو فى ترديدها.

ودلالة المسـرحية جـد واضحـة، فنحـن لا نريـد نسـخا متطابقـة مـن المتعلمين الذين يرددون نفس الكلمـات ونفـس الأفكـار ويسـتوعبون المـواد الدراسية بشكل نمطى لا تبديل ولا تغيير ولا إبداع فيه.

وبالرغم من تعدد معاني الإبداع، فإن بعض التعريفـات تحـاول وضـع تصور يحـدد مظـاهره المختلفـة. وعلـى هـذا فـإن الإبـداع عمليـة متعـددة الجوانـب، يحـدد بأربعـة جوانـب (PS) وهـى: Process, Product, Person, Press

الكلمة الأولى Process تترجم معانى العملية الإبداعية التى يمـر بـها المبدع فى عمله.

أما الكلمة الثانية Product، فتركز على الإنتاج الإبداعى، وعلـى أن الإبداع هو ظهور إنتاج جديد، هو الأساس الذى يعبر عن الإبداع.

أما الكلمة الثالثة، فتركز على المبدع باعتبـاره شـخصًا لـه خصائصـه العقلية والنفسية والوجدانية المتميزة.

وأخيرًا Press والتى تستخدم بمعنى البيئة بكل إيجابياتـها، كبيئـة خلاقة للإبداع أو مقاومة له.

وهذه الجوانـب الأربعـة تمثـل منظومـة مـن شـأنها تحقيـق الإبـداع: عمليات عقلية تؤدى إلى إنتاج إبداعى، هذا الإنتاج من خلال شخص لـه خصائصه المميزة وهذه الجوانب لا يتحقق لها فاعلية إلا من خـلال بيئـة مخصبة للإبداع غير مقاومة له واعية بأنه ضرورة حياة ووجود.

وثمة مشكلة نعانى منها فى اكتشاف وتنمية مواهب الأطفال الإبداعية هذه المشكلة تكمن فى تعثر الأطفال فى القراءة، والقراءة فى حد ذاتها مصدر خصب للخيال ولإثارة القدرات والإمكانات.

فهل هناك مواصفات خاصة بكتاب الطفل؟

يجيب الخبراء عن ذلك: بأن فرصة تعليم القراءة تبدأ فى الصغر، وتبدأ بالقدرة على فهم الصور ومحاولة فهم الكتاب من خلال الصور الموجودة فيه وفهم هذه الصور على أنها لغة قائمة بذاتها، بمعنى أن يصبح الطفل قادرًا على تحويل المعانى الرمزية التى يراها فى الصورة الى كلمات محسوسة ومفهومة. فتعلم قراءة الصور تعتبر الخطوة الأولى لتعلم اللغة المكتوبة ولذلك يجب تشجيع الأطفال على فك رموز الكتب المصورة ومحاولة فهمها.

ويتم ذلك عن طريق:

- تشجيع الأطفال منذ الصغر على حب القراءة لأن ذلك ضرورة لا مناص منها لإيجاد طفل مولع بالمعرفة.
- وتعتبر اللغة وسيلة تعتمد فى تكوينها على المعانى الرمزية، لذلك فإن اللغة ليست مجرد كلام بل وسيلة لتحديد العالم الخاص بكل شخص والتعبير عنه كما أنها وسيلة للتعبير عن الحقيقة المراد التعبير عنها.
- ثم إن القراءة تنمى إحساس الطفل باللغة وتكسبه القدرة على التعبير عن نفسه، وهذه ظاهرة إيجابية من شأنها تنمية قدرة الطفل على البحث عن ذاته، وخلق إحساس بالرغبة فى التعرف على الآخرين

وكيفية التعامل معهم. ومن شـأن ذلـك إكسـاب الطفـل مـهارة إقامـة حوار مع العالم الخارجى بيسر وسهولة.

وفى إقامة هذا الحوار مع العـالم ومـع الآخريـن، تتقـوى دعـائم ثقـة الطفل بنفسه، ويشعر بذاتــه كهويـة فريـدة، ويتعلـم كيـف يكـون عفويـا وتلقائيًا فى التعبير عن نفسه.

لأن المشكلة تكمن فى عدم قدرتنا على التعبير عن أنفسنا، فى اغتيال الكلمات قبل التلفظ بها، فى ذلك التلعثم الذى يبرهن عن إحساس عـارم بفقدان الأمن والثقة بالذات.

ولهـذا ينبغـى أن نعـرض الصـور علـى الطفـل لتـترجم واقعـا حقيقيًـا يعيشه، لأنه يستطيع من خلال الخيال أن يستلهم حلولا لمشكلات قائمة بالفعل. فعنصر الخيال هام جدًا فـى كتـب الأطفـال ويـؤدى دورًا هامًـا، فنحن نعيش فى عـالم مدجـج بالسـلاح، تحـاصره مخـاطر بيئـة، ملوثـة أو شبه ملوثـة، وهـذا العـالم يتطلـع إلى إنجـازات علميـة مـن شـأنها أن تخلصه من تلوث البيئة، ومن محاصرة أسلحة الدمار الشامل.

وفى بلادنا نعيش تحديات مخاطر بيئية، تحديات علمية، وتحديات تكنولوجية وكثافة سكانية فـى تزايـد مستمر ومشـاكل طفولـة وشـباب وما إلى ذلك، فكيف نثير خيال الأطفال وندفعهم إلى التفكير بشكل جديد.

وعن طريق عرض المعلومات على هــذا النحـو يسـتطيع الطفـل تكويـن صور واقعية عــن واقعـه الـذى يعيـش فيـه وعلـى رسـم معـالم مسـتقبله،

فالمعلومات المطروحة على الطفل بشكل موضوعى تنمى عنده القـدرة علـى التعامل مع العالم.

فعن طريق الأسئلة التى تثير كوامن خيال الطفل (ماذا - ولـو) مـاذا تستطيع أن تفعل لنظافة البيئة؟ لو كنت أنت المتصرف الوحيد فـى هـذا العمل فما الـذى تسـتطيع أن تفعلـه؟ وهـل يسـتطيع الإنسـان أن يعيـش ويتنفس تحت الماء؟ هل يمكـن تطويـر أدواتـه العلميـة فـى النظافـة وفـى تطهير البيئة، وفى الإرسال التليفزيونى.

مثل هذه الأسئلة تثير خيال الطفل.

ثم إن الأطفال يحبون الحوار، وعن طريق الحوار يتعلمـون ويكتسـبون الثقة فى أنفسهم وفى العالم المحيط بهم.

ولعل من أهم ما يميز الأطفـال أنـهم يتعشـقون اللغـة الرنانـة والمنغمـة والكلام الموزون والأغانى، ولهذا ينبغى أن تكون لغة الكتابة للطفل تحمل هذه المعـانى لتجـذب الطفـل إلى عـالم الكلمـة المطبوعـة الممتلئـة خصوبـة ومعنى.

وأخيرا فإن الكتاب الجيد للطفل هو الذى ينمى سـلوكه الاجتمـاعى، ويضع له الخطط بالنسبة للحياة فى المستقبل ويزيده من المعرفـة والعلـم، ومن استمتاعه بهذا العالم. ويضعه على جناح واحد مع عـالم الكبـار عـن طريق اللعب والتخيل، وينمى لديه القدرة على التخيل، ويوسـع مداركـه اللغوية ويمكنه من إثارة المشكلات التى تبحث عن حلول غـير تقليديـة،

وهاهو (أينشتين) يعلمنا كيف يكون الخيال الينبوع الرئيسى لكل علم ولكل معرفة، مؤكدًا أن الأفكار لم تكن تأتيه فى أية صياغة لفظية، فالفكر كان يأتى أولا ثم يحاول التعبير عنه بالألفاظ والكلمات.

أما الإبداع فيكمن فى رأيه فى إثارة المشكلة، وأن المشكلة أهم من الوصول إلى حل لها، حيث إن إثارة أسئلة جديدة واحتمالات غير مألوفة يتطلب خيالا إبداعيًا..

وتأسيسًا على ما سبق يصبح الإبداع واكتشاف المواهب وحسن رعايتها قضايا حياة ووجود، فى عالم تقاس قوة الأمم بالمعرفة والعلم، فالمعرفة قوة، والمعرفة ثروة، والمعرفة سلطة ووجود وكينونة وموقع متميز فى خريطة العالم.

فنحن نعيش فى عصر متسارع فى إنجازاته العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية، عصر تَفَجُّر معرفى متواصل، استطاعت فيه ثورة الاتصالات والمواصلات والمعلومات أن تجعل من العالم قرية تكنولوجية واحدة، عصر تجاوزت فيه المواصلات والاتصالات المسافات بين البشر، ولكنها لم تستطع أن تتجاوز الخصوصيات الثقافية، فلكل مجتمع إرثه الثقافى الذى لا يسافر ولا يرحل ولا يتعولم.

فحضارة الإنسان واحدة، وعقله واحد، ولكن ثقافته متعددة!

وتستطيع الثقافة المصرية أن تكون قوة دفع لا رد لها صوب المستقبل إذا ما اتصفت بالمرونة والوعى بمتغيرات عصر، نحن فى داخله بحكم العراقة.

فالدور المتميز فى عالم الأمس وعالم اليوم وعالم الغد، والموقع ، هذا العصر تُهيمن عليه مفاهيم العولمة (الكوكبية) والكونية والاعتماد المتبادل بين الأمم والشعوب والإبداع كضرورة حياة، وضرورة وجود ونزوع صوب مستقبل نستطيع بالإبداع أن نختزل المسافات الزمنية التى تفصلنا عن غيرنا من الأمم والشعوب.

وهذا يستلزم:

أولاً: مسايرة التيارات الكوكبية التى تنشغل بتعليم الطفل، باعتباره ضرورة أساسية وله الأولوية فى القرن الحادى والعشرين، ذلك أن هذه التيارات تنظر إلى تعليم الطفل على أنه حجر الزاوية فى بناء المجتمع الكوكبى الجديد، حيث الأطفال فيه هم قادة المستقبل فى إحداث التغيير المطلوب.

ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق تعليم الطفل وتدريبه على إنتاج المعرفة، بدلاً من تدريبه على أن يكون مستهلكا للمعرفة. أو بمعنى آخر لابد من تغيير النسق التعليمى القائم على الحفظ والتلقين والتذكر إلى نسق تعليمى يقوم على الإبداع والموهبة.

ثانيًا: نشر الثقافة العلمية فى كافة الوسائل الإعلامية: المسموعة والمقروءة والمرئية، حتى تتكون لدى الجماهير رؤية علمية تنعكس بالضرورة على أسلوب حياة الناس فى تعاملهم مع التكنولوجيا.

● إن الطفل حينما ينتقل إلى المدرسة لا ينتقل وعقله صفحة بيضاء، فالطفل يدخل المدرسة بخلفية إعلامية، ولهذا فالصفحة البيضاء

ليست بيضاء، بل مملوءة وقد تكون مشوشة وتحتاج إلى تعديلات جذرية فى طريقة التعامل مع الطفل إعلاميًا، فكثير من البرامج تفتقر إلى الوضوح وتتسم بالسطحية الشديدة.

ولعل أهمية الإعلام تكمن فى أننا نعيش جيل (الشاشة الصغيرة) الذى يتأثر بدراما التليفزيون وببرامجه ومنوعاته وما إلى ذلك. والسؤال هاهنا: هل البرامج التى تقدم للطفل تساعد على استثارة الخيال والتحفيز على العمل الخلاق والإبداع وتُحسن استثمار الزمن؟

وسأترك الإجابة للقارئ.

- التأكيد على أن الأسلوب التربوى الذى يخلق مناخًا للإبداع، يقوم على التسامح ويشجع على الاختلاف فى الرأى وينمى التفكير الناقد، ويعمق النهج العلمى فى تناول الوقائع ويتيح الفرصة للاستنباط العقلى والمبادرة الشخصية والجرأة فى اقتحام المجهول.
- التأكيد على سيادة العقل باعتباره السيد الذى ينبغى أن يطاع، وتحريره من أسر الجمود وثنائيات التفكير القطعى الذى يكبل حركته ويحرمه من ممارسة تجلياته ومناشطه فى عالم العلم والتكنولوجيا.

إن تنمية الإبداع يمكن تدعيمها بمسلمتين أساسيتين:

المسلمة الأولى : تدور على أن تنمية الإبداع تسهم فى تحقيق الذات وتطوير المواهب الفردية، وتحسين النمو الإنسانى، ونوعية الحياة.

أما المسلمة الثانية: فتدور على أن المبدعين يسهمون فى إنتاجية المجتمع برمته، ثقافيا وعلميًا واقتصاديا.

- إن تنمية الإبداع من شأنه تحسين الآداء الإبداعى عن طريق الحوار وتوزيع الأدوار، والتلقائية فى التعبير، والوعى بالزمن، والتأكيد على مهارات حل المشكلات، وما إلى ذلك.
- إن مرونة النظام المدرسى من شأنها تنمية الإبداع والكشف عن المواهب وذلك عن طريق تقديم تنويعات من المقررات الدراسية التى تساير المواهب والاهتمامات المتنوعة والإمكانات الخاصة، فعن طريق إتاحة الامكانات المتنوعة أكاديميا ورياضيا، وأدبيًا، واجتماعيًا - تحدث الجاذبية الخاصة بين الطفل والمجال الذى يستطيع أن يلمع فيه، وتظهر من خلاله إمكاناته وقدراته.
- إن الموهبة لا تنمو إلا فى جو من الحرية والتسامح، لذلك فإن مناهج التعليم بشكلها الحالى لا تتيح للطفل فرصة التعبير عن موهبته، بل تساعد على انطفائها وضياعها، فكم من موهبة وُئِدَتْ، وكم من قدرة أجْهضت، وكم من إمكانية تلاشت، لأن المواهب والقدرات والإمكانات لم تَجِد الظروف المناسبة للاستثمار الجيد فى عالم البشر، وفى النظر إلى النسق التعليمي على نحو يتفق وإيقاع عصر جديد نعيشه وظاهرة كوكبية تمتد لتحتوى العالم بأسره.

ونتيجة لهذا كله ينبغى تحديد الإشكاليات المعوقة للإبداع، وضرورة وضع إطار نسق تعليمى جديد، يسعى إلى تفعيل الطاقات والقدرات

الكامنة لدى الطفل، ولدى القطاعات الجماهيرية الأخرى، فالإبداع أعدل الأشياء قسمة بين الناس.

وكل طفل هو كائن موهوب إذا لم تقهر (الدهشة) التى ترتسم على وجه حين يرى تناقضا فى الواقع، وإذا لم نقهره عندما يوجه أسئلة غيرَ مألوفة وإذا لم نمنعه عندما ينقد سلوكيات عالم الكبار.

خصائص الموهوبين

تتفق إلى حد كبير خصائص المبدعين والموهوبين مع خصائص الصحة النفسية السليمة تلك التى تكمن فى قدرة الإنسان على تحقيق التوافق بين جنباته الشخصية المختلفة - عضويا ونفسيا واجتماعيا ووجدانيا، وبين واقعه، والعالم الذى يعيش فيه، والرضا عن مواطن الضعف ومواطن القوة فى صلب تكوينه، ولكن بغير استكانة بل بسعى يبلغ حد التمرد على واقعه وعلى نفسه، فسوية الإنسان تكمن فى قدرته على التجاوز والعلو والتمرد على ما هو قائم إلى ما ينبغى أن يكون.. وفى رحلة التجاوز والعلو يكابد الكثير من القلق والمعاناة والألم.

وبعبارة أخرى فإن السوية تعنى درجة هينة من العوارض المرضية، فكل إنسان يكابد القلق كخاصية وجودية تمثل اللب والصميم من وجودنا، ويعايش الاكتئاب كعرض ملازم للوجود الإنسانى، ويفتش عن نفسه، باحثا عن موقع متسام فى صميم العالم، مشبعا نرجسيته بغير إفراط مرضى يبلغ به إلى حد اشتهاء الذاتى وتوثيينها، بل على نحو يتحقق معه إحساس بالذات من خلال هذا المدد النرجسى الذى يأتينا من الآخرين، ويدفع الحياة دفعًا إلى الأمام، فمن ذلك الإنسان الذى لا يريد أن يعرف أبعاد نفسه من خلال الآخرين، فى حالة المبدع يبلغ إلى حد تقدير الذات من خلال استحسانات الجماهير لإبداعاته الخلاقة.

ورغم هذا فالإنسان يعيش الإحساس بالخوف، وبفقدان الأمن.

ولولا الخوف وفقدان الأمن ما تقدمت الحياة خطوة إلى الأمام، فالخوف هو الذى دفع الإنسان إلى أن يحتمِىَ بالكهوف، من الكوارث الطبيعية ومن الحيوانات المفترسة، التى كان يصورها على جدران كهوفه، مقطوعة الرأس، تخيلا منه، بأنه هو الذى قطع رءوسها وانتصر عليها، وأبادها تمامًا، وتطور الكهف فأصبح الآن كهفا نوويا باردًا، تختزن فيه كل ما يبيد الإنسان، فى باطن الأرض، وفوق الأرض، وفى أعماق المحيطات وفى أفلاك السماء، تحت وهم الدفاع عن الإنسان، ضد ماذا؟ ضد خوف عارم ومتأصل فى صلب تكويننا.

على أية حال فإن اللاسواء عرض من عوارض الوجود الإنسانى، ملازم للإنسان مصاحب له.

والفرق بين السواء واللاسواء يكمن فى الدرجة وليس فى النوع، فالإنسان يكابد الصراع والإحباط والتوتر، ويَسْعى إلى التطلع إلى الأمام، وإلى بلوغ أقصى ما تستطيع طاقاته أن تبلغ إليه، فتطوره شوط بغير انتهاء، وأن الإنسان إمكانية مفتوحة تتجه صوب ما يستطيعه الإنسان ويسعى إليه من حيث هو وجود إنسانى فسيح يتجلى فى ثراء نفسى وعقلى ممتلئ، مفعم بالإمكانات والقدرات، وأن وجوده قائم على دعم انتشاره الإنسانى باستمرار وتحقيق نموه المتواصل.

وهنا نردد مع مننجر Menninger قولته المأثورة (السوية فى الحياة خرافة) فهى مقولة كاشفة لمعنى الوجود الإنسانى فى أوضح صوره.

ونردد أيضا قول أبى حامد الغزالى:

النقص في الوجود عين كماله !

ولـو استقام القـوس مـا رمى !

ومعنى هذه العبارة أن النقص الكامن فينا هو الذى يدفعنا إلى التطور!

وثمة أسـطورة إغريقيـة تقـول: (لا يخلـو إنسـان مـن كعـب أخيـل).
وأخيل هو بطل هوميروس الشهير في الإلياذة الخالدة، فقد غمرت الآلهة أخيل في نهر الخلود، ممسكين به من كعب قدمه حتى لا يغرق، فكانت الرماح والسيوف تتكسر على صـدره الخـالد، حتـى إذا أدرك أعـداؤه أن كعبه لم يغمر في ماء الخلود، صوبوا عليه سهما ضعيفا، فقتله في الحال.

ودلالة الأسطورة: إن الإنسان لا يخلو من نقاط ضعف ونقص!

ومما سبق يتضح أن السواء معنى نسبي وأن تطور الإنسـان يكمـن فـي إحساسه بهذه النسبية النفسية، وبقدرتـه علـى تجـاوز نفسـه والتسـامي فوقها.

ولعل من أهم ما يتصف به المبـدع والموهـوب هـو قدرتـه علـى تحمـل تناقضات نفسه، في تواصل مع متناقضاته الداخلية والخارجيـة، يحقـق له العلو باستمرار عن طريق الإنتاج الإبداعي.

وهذا ما سوف نكتشفه عند استعراض بعـض جوانـب شـخصية جـون استيوارت مل، وتشرشل ودكتـور جونسـون ونيوتـن وكافكـا وغـيرهم مـن المبدعـين الذيـن بـهروا الدنيـا بإبداعاتـهم الخلاقـة وصروحــهم العلميــة الرائدة، وقيادتهم الحكيمة لشـعوبهم بمـا ينطـون عليـه مـن كارزمـا فـي الحرب العالمية الثانية، كما هو الحال مع ونستون تشرشل..

فى سنة ١٩٧٢ ألف انطونى سنتور Anthony storr وهـو عـالم نفـس بريطانى شهير كتاب أسماه (ديناميـات الإبـداع) The Dynamics of creation تناول فيـه بعض الشـخصيات الإبداعيـة بـالتحليل، فبـين أن كثيرا منهم تكون خلفيته النفسية اكتئابيـة، غـير أنـه أوضـح أن الكتابـة وغيرها من الأنشطة الإبداعية قد تساعد الاكتئابيين مـن نـاحيتين: الأولى أن الاكتئابى قد يكتسب مزيدا من الإحساس بكفاءته واستطاعته أن ينتج شيئا على الإطلاق، والثانية أن ما أبدعه إذا نشر أو عرض وتقبله النـاس فإن ذلك سيدعم تقديره لذاته تدعيما كبيرا يتكرر كلما أنتج شيئا جديدا، فالمبدع يتوحد بدرجة كبيرة مع ما ينتج، ومن ثـم يكـون أكـثر حساسـية بشأنه، ولعل ذلك أحد الأسباب الشائعة لتوقـف الإبـداع أو عـدم القـدرة على إتمام العمل الذى بدأ فيه المبدع، هو الخوف من النقد العدائى عندما يعرض على الناس فى النهاية. وكانت الروائية الشهيرة فيرجينيا وولـف مثالا للكاتب النـاجح الـذى ظـل طـوال عمـره شـديد الحساسـية للنقـد، وكانت تنتابها نوبات من الاكتئاب ذات شدة ذهانية، وفى النهاية عندما لم تستطع مواجهة نوبة وشيكة الوقوع أقدمت على الانتحار.

ويقال أن ونستون تشرشل كانت تنتابه نوبات اكتئابية خـلال فـترات السكون وعدم الحركة، مثلما حدث له أثنـاء اعتقالـه لفـترة قصـيرة مـن حرب البوير، أو عندما يصادفه فشل ما، مثلما حدث للحملة التى دبرها فى الدردانيل خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، وكـان فـى أحس حالاته خلال الحرب العالمية الثانية، حين كان هتلر عدوا شـرعيا لا يشك أحد فى ضرورة هزيمته. ولقـد تعـامل تشرشـل بشـكل يدعـو إلى

الإعجاب مع تكوينه النفسى المرضى الكامن حتى استطاعت الشيخوخة وتصلب الشرايين القضاء على إرادته، وغرق فيما يبدو أنه نوع من الغيبوبة الاكتئابية خلال سنواته الأخيرة.

ويعتبر جون ستيوارت مل، نموذجا للشخص الذى عانى من نوبة حادة من الاكتئاب خلال حياته الراشدة، أهلته لها بوضوح تنشئته الأولى فكما يعرف الجميع تميز جون ستيوارت مل بنضجه العقلى الفذ المبكر، وتولى أبوه جيمس مل بنفسه أمر تربيته وتعليمه، مما أدى بالطفل الصغير إلى أن بدأ دراسة اليونانية وهو فى سن الثالثة، وما أن بلغ الثامنة حتى كان قد قرأ كل مؤلفات هيرودوت، ومحاورات أفلاطون الستة الأولى وغير ذلك كثير، يقول فى مذكراته كان من المستحيل تمامًا أن أكون قد فهمت محاورة أفلاطون (ثيتيوس) ولكن أبى خلال تربيته لى كان يطلب منى الحد الأقصى الذى يمكننى أن أذهب إليه قراءة وفهما.

ورغم أن (مل) قد سبق أقرانه بربع قرن، إلا أنه منع من الاختلاط بهم، حتى إنه لم تتكون لديه أى فكرة عن أن إنجازاته فذة إلا فى الرابعة عشرة من عمره. وكان يقارن نفسه بأبيه فيشعر بالدونية، فضلا عن ذلك لم يشارك فى أنشطة أو ألعاب مما كان يمارسه أقرانه، ولهذا كانت مهاراته الجسمية فى أدنى مستوى، وظل عديم الدراية بكل ما يتعلق بالمهارات اليدوية، كما أن والده - وهو مفكر وفيلسوف - كان ذا طاقة وعزم، ولهذا يعلق (مل) على ذلك بقوله (غالبا ما ينشأ أولاد الأبوين النشطين أقل نشاطا، لأنهم يعتمدون على أبويهم، ويقوم نشاط الآباء مقام الاثنين.

ونقول عن (مل): إن قدراته كانت فائقة، ولولا تهيئته بحكم عناصره التكوينية لاستيعاب العلم وما يعطى إليه ما بلغ هذا القدر من الإمكانيـة، ففي الثالثـة قـرأ الكلاسيكيات اليونانيـة، وفـى الثامنـة درس اليونانيـة واللاتينية، وفـى الوقـت نفسـه كـان معلمًـا لأختـه الصغـرى، وفـى سـن الحادية عشرة درس الرياضيات، وبعـد ذلـك ابتـدع منطقـا جديـدًا، هـو المنطق الاستقرائى أو التجريبى.

وكل طفل يستطيع أن يكون جون اسـتيوارت مـل، إذا لم نقـهر فيـه الدهشة، ونجتث منه الشوق العارم إلى المعرفة ونحبطـه قـهرًا كلمـا سـأل سؤالا غير مألوف أو اكتشف تناقضـا حـادًا فـى سـلوكنا، أو فـى الواقـع الذى يعيش فيه.

وقيمة المبدع تظهر فى قدرته على إضفاء القيمة والمعنى على مـا يفعلـه وذلك عن طريق الموقف من الحيـاة، علـى نحـو يصـل فيـه المبـدع نفسـه بالعالم وبالناس، فإذا تعطلت الحركة بين الداخـل والخـارج، بـين ذات المبدع والعالم الخارجى، توقف الإبداع.

وثمة نموذج آخر فريد فى تكوينه، فريـد فـى خصائصـه، علـى نحـو يجعلنا نفكر جليا فى ضرورة إعادة النظر فى معنى السواء الإنسانى وهـو نموذج اسحق نيوتن.

فقد أظهر نيوتن العديد من السمات ذات الطبيعة الفصامية، فقد كـان يميل للعزلة بشـكل ملحـوظ ولم ينشـىء أى علاقـة حميمـة مـع الجنـس الآخر، كما كان شديد الشك، يرفض أن ينشر أعمالـه، وميـالا إلا اتـهام

الآخرين بسرقة اكتشافاته وعندما جاوز الخمسين من عمره أصيب بانهيار ذهاني غلبت عليه الأفكار البارانويدية (أوهام العظمة والاضطهاد). ويمكن أن نرجع نشأة بعض متاعبه الانفعالية على أقل تقدير إلى المعاناة التى تعرض لها فى طفولته المبكرة.

كان نيوتن طفلا مبتسرًا (أى ولد قبل أن يقضى مدة الحمل كاملة فى رحم أمه)، توفى أبوه قبل ولادته وتلقى العناية الكاملة من أمه فى السنوات الثلاث الأولى من عمره، إلا أنه بمجرد انقضاء عيد ميلاده الثالث تزوجت أمه مرة أخرى، ولم تكتف بتقديم زوج أم غير مرغوب فيه، بل زاد الطين بلة، أن تقوم جدته بتربيته، بينما انتقلت هى مع زوجها إلى منزل آخر، ونحن نعلم من كتابات نيوتن كيف أنه أحس بما فعلته أمه وكأنه خيانة عظمة، ومنذ تلك اللحظة لم يول ثقته أى إنسان آخر.

والسبب الثانى فى تجنب إقامة علاقة حميمة مع الآخرين هو الخوف من سيطرة حكم الآخر إلى الدرجة التى يفقد فيها المرء هويته كشخص مستقل، ونحن جميعا نبدأ الحياة تحت رحمة الكبار الذين يفوقوننا قوة، وكلنا يسعى بطرق مختلفة للوصول إلى درجة من الاستقلال.

ويمكن اكتشاف النزوع إلى الاستقلال عند الأطفال الصغار، فالكثير من ألعابهم تدور حول إظهار أن بإمكانهم أن يهزموا الكبار ويصبح كل منهم ملك القلعة، والإبداع لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال قوة شخصية وجود، يتمتع بإصرار على التقدم إلى الأمام.

وثمة نموذج آخر على أن المبدع يمكنه أن يتحمل تناقضات نفسه فها هو صمويل جونسون وهو كاتب وناقد ومعجمى إنجليزى، كان يعانى

من اضطراب يسمى كوريا، وهو اضطراب يتميز باختلاجات وتشنجات في الوجه والأطراف ومن أعراض مرضية أخرى.

ولكنه كان يستطيع أن يتحكم في حركاته وتشنجات وجهه وفي كلامه عندما يريد، مما يشير إلى أن هذه الأعراض ناشئة عن صراعات نفسية وليست عن عوامل عضوية.

□□□

ثمة خاصية مشتركة بين المبدعين ، تكمن في قدرة المبدع على تحمل تناقضات نفسه، والارتفاع فوق مواطن ضعفه، وعدم الاستسلام للعجز والإحباط، والتمكن من التواصل مع نفسه، مع إمكاناته وقدراته، مع ثرائه الإنساني الفسيح.

وهذه القدرات النفسية التي يتمتع بها المبدع، بما تنطوي عليه من مرونة في التعامل مع الأفكار والموضوعات والأشياء تلزمنا بإعادة النظر في مفهوم الصحة النفسية لدى هؤلاء المبدعين، فرغم أن بعض السمات الخاصة بالمبدعين تضعهم ضمن المضطربين نفسيا، إلا أن طاقاتهم الإبداعية، وإمكاناتهم الخلاقة تجعلهم أشبه ما يكونوا بالقاطرة التي عليها أن تجر باقي العربات الإنسانية نحو التقدم إلى ما هو أفضل.

وتأسيسًا على ما سبق، نستطيع أن نقول: إن المبدعين والموهوبين يتصفون بخصائص لعل من أهمها: الانفتاح على الخبرة، المرونة العقلية والتكيفية، المبادأة في المواقف، المثابرة وقوة العزيمة، التفاؤل والمرح وعمق الانتماء، التعطش المعرفي، والثقة بالنفس وحب الاستطلاع

والاعتماد على الذات.. وما إلى ذلك من سمات نفسية تضع المبدعين ضمن معايير الصحة النفسية.

ورغم الثراء النفسى والمعرفى والعقلى الذى يتمتع به المبدع والموهوب إلا أننا سنركز على بعض الخصائص التى نراها محورية فى شخصية المبدع والموهوب أيضا.

ويتمثل بعض هذه الخصائص فى:

١ - الثقة بالنفس.

٢ - المبادأة والقدرة على اقتحام المجهول.

٣ - التمرد الإيجابى.

٤ - خصوبة الخيال.

٥ - المرونة العقلية والانفعالية.

٦ - الحساسية إزاء المشكلات.

٧ - القدرة على الدهشة الفعالة.

٨ - تحمل الإحباط.

أولاً: الثقة بالنفس

تبدأ جذور الثقة بالذات والطفل ما يزال فى المهد صبيًا، حيث تحتل السنة الأولى من عمره، وتتميز هذه المرحلة بشعور الطفل بالثقة فى نفسه وفى غيره من الناس، وفى العالم بوجه عام، وقد يبلغ فى ثقته حدًا لا نهاية له، وقد يفقده، ومن ثم يفقد معها الجوانب المبدعة فى تكوينه،

فكل طفل هو طفل موهوب ينطوى على إمكانات وعلى قدرات وعلى مواهب، وتتوقف تنمية هذه القدرات وهذه المواهب على نوع الرعاية التى يتلقاها داخل الأسرة. فالطفل الذى تلبى حاجاته، ويجد من يدلله ومن يتحدث إليه، ويشاركه اللعب والضحك فيتصور العالم مكانا آمنا، والناس أهلاً للثقة، إما إذا لم تتوافر الرعاية النفسية والاجتماعية العضوية للطفل داخل أسرته، فإنه يشعر بأن الناس غير جديرين بالثقة وأن حياته غير آمنة، ويتكون لديه شعور بالخوف وفقدان الثقة فى نفسه وفى الآخرين، وفى العالم من حوله.

والشعور بالثقة أو فقدانها لا يتكون فى السنة الأولى من حياة الطفل بدرجة من الثبات يتعذر معها تغيير الاتجاه، فالطفل قد يجد فى المدرسة وفى المحيطين به ما يقوى لديه دعائم الثقة بالنفس وبالقدرات والإمكانات.

وبغير شك فإن الثقة بالنفس تمثل البنية الأساسية للشخصية. فعن طريق الإحساس المتين بالذات يتحدد، مدى قدرة الطفل على الاعتماد على نفسه.

ويرجع ذلك إلى أن القدرات الحسية والحركية والعقلية التى تنمو وتعبر عن نفسها عند الطفل والتى تستغرق السنة الثانية والثالثة من عمره.

وفى هذه المرحلة يستطيع الطفل أن يمشى وأن يتسلق وأن يفتش عن حاجاته، وأن يفتح المغلق، ويغلق المفتوح، وأن يجذب الأشياء وأن

يدفعها، ويمسك بقبضته، والطفل بهذه القدرات الجديدة فخور بنفسه، يحب أن يعمل بنفسه كل شيء، يأكل ويرتدى ملابسه، إنه يتخلق كموجود مستقل، من خلال تفتح قدراته فى كل منشط من مناشط الحياة.

ونموه كموجود مستقل يتوقف على طبيعة التنشئة الاجتماعية التى يحيا فى كنفها داخل الأسرة، والتى قد تنمى لديه الاعتماد بأنه قادر على التحكم فى نفسه وفى دوافعه وفى إمكاناته البدنية وفى بيئته، أو قد تسلبه الشعور بالاستقلالية ومن ثم الخجل والشك فى قدراته وكل من الرعاية المفرطة أو الرعاية المتسلطة والمتشددة يسلب الطفل الشعور بالاستقلالية الذاتية، ويجهض لديه تلقائيات القدرات الإبداعية، ويحوله إلى موجود يستطيع بغيره ولا يستطيع بنفسه.

ثانيًا: القدرة على المبادأة واقتحام المجهول

المبادأة أمر لا مناص منه للمبدع والموهوب، فإذا ضعفت المبادأة - وتلاشت، فإنه لا يستطيع أن يقتحم المجهول، ومن ثم يعيش نهبا للقلق متوائما، وفى التوائم قهر واستسلام لما هو موجود.

وتقوم المبادأة على الثقة بالنفس، وعند الطفل تتميز القدرة على المبادأة بتميز قدراته الحسية والحركية والعقلية والوجدانية واللغوية.

فالطفل فى هذه المرحلة يستطيع أن يجرب الكثير من الأشياء، وأن يبادر بأنشطة حركية يقوم بها من تلقاء نفسه، محاولاً السيطرة على البيئة المحيطة به، مخترقًا حجب المجهول، منقبا متفردًا فى تصرفاته،

لا يكتفي بتقليد الآخرين، بل يقوم بكل ما من شأنه أن يقوى سيطرته على ما يحيط به.

وفى هذه المرحلة (من الرابعة حتى الخامسة) تتمايز قدراته اللغوية والتصويرية فى هيئة حوارات وتصورات يتخذ فيها فعل المبادأة بكل تلقائية، وينمو لديه الضمير الخلقى.

وهذه المرحلة أيضا تعتمد على الأسرة التى تسمح للطفل بأن يبادر وأن يعبر عن ذاته وعن إمكاناته مؤكدا نفسه فى المواقف، ومبادرًا بغير خوف أو إحساس بالذنب.

ولكى تتغلب روح المبادأة على الشعور بالذنب يجب على الأسرة أن تستجيب لاهتمامات الأطفال وأن تشجعهم على الأنشطة التى تنمى فيهم المبادأة كالجرى وركوب الدراجات، وممارسة الرياضة واقتحام المجهول وركوب الخطر، ومن ثم لا يسخران من نشاطاته ولا يصدانه عن التساؤل حتى لا ينمو لديه الشعور بالذنب، وأنه غير مستطيع بنفسه، بل بمساعدة الآخرين، محاصرًا فى تصرفاته بترسانة من الأوامر والنواهى، أى افعل ولا تفعل.

إن قصة (بيبى لنج شترومف) والتى بيع منها ملايين النسخ حتى الآن، وترجمت إلى معظم لغات العالم، ورشحت السيدة (اُسترِيد لين جرين) كاتبتها لنيل جائزة نوبل عدة مرات، كانت قصة فتاة صبورة مقدامة، متعطشة إلى المعرفة، معتمدة على ذاتها، متمردة على أوضاع

تحد من قوة الأطفال وخيالهم الخصب، رافضة كل ما من شأنه أن يعوق حركتها وسموها واندفاعها التلقائي المبدع.

فالإبداع عند الأطفال يتحقق من خلال الثقة بالنفس وبالقدرات وبالعالم وبالقدرة على المبادأة.

ثم تأتي مرحلة نمائية تالية يمتد فيها عمر الطفل من السادسة وحتى البلوغ، وفي هذه المرحلة يهتم الطفل (بالكيف) على حساب (الكم)، فالطفل يهتم بالكيفية التي تصنع بها الأشياء، وجوهر حركتها، والوظيفة التي تؤدى بها، ومن ثم كان الاجتهاد والمثابرة وإطلاق العنان للتصورات العقلية سمة مميزة لهذه المرحلة.

وهنا ينبغي تشجيع الأطفال على الجهد والمثابرة في صنع الأدوات وفي محاولة إبداع بعض الأشياء، لنماذج الطائرات، وبناء المنازل أو الطيور أو التطريز، وما إلى ذلك.

وإذا نحن شجعنا الطفل على ذلك نمت قدراته وأحب العمل كقيمة، وتفتحت مواهبه، وتعلم كيف يكون الجهد، وكيف يكون الإصرار لبلوغ الأهداف، وتولد لديه البحث عن الجوهر واللباب والكيفية التي تصنع منها الأشياء.

أما إذا سخرنا من قدراته، وصورنا له كل ما يفعله على أنه عبث في عبث، ووهم، وأنه لا يتمتع بأي قدرة، وليس وراء ما يفعله فائدة أو قيمة، انتابه شعور عميق بالخزى من قدراته، والإحساس بالدونية والعجز والإحباط.

وهنا تلعب المدرسة دورًا كبيرًا فى تشكيل وصياغة ومكونات الطفل النفسية والإبداعية، باعتبارها عالمًا أكبر من أسرته، غنى وثرى بتفاعلاته الاجتماعية وبمجالاته المختلفة، وأنشطته المتنوعة. فإذا كانت المدرسة مهيئة لذلك استطاعت أن تكتشف المواهب على نحو مبكر، وأن ترعاها وأن تقدم إلى المجتمع بعد أن تؤصل فيها روح الانتماء والعمل على نحو مبدع.

ثالثا: التمرد الإيجابى

الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يرفض أن يكون على ما هو عليه، وهذا سر تقدمه، وسر إبداعاته الخلاقة، فعلى مسار تاريخه الحضارى، لم يستكن الإنسان لوحدته مع الطبيعة، بل حطم هذه الوحدة بالتمرد الإيجابى على الطبيعة، فهو ليس كالحيوان، وإن كان جزءًا من الطبيعة، فالحيوان لا يستطيع أن يتجاوز الطبيعة، فليس له وعى بذلك، وجوده وجودٌ قَسرىٌ تحكمه مسارات غرائزية لا تبديل ولا تغيير فيها.، أما وجود الإنسان فهو وجود بالحرية، وجود خلق بعقل فريد وقدرات متميزة وإمكانات تتواصل بغير انتهاء، ومواهب شتى وخيال خصب، وبهذا الزاد استطاع الإنسان أن يتجاوز نفسه، وأن يعلو فوقها، لأنه كائن مفارق، متمرد على ما هو كائن إلى ما ينبغى أن يكون، فى المستقبل.

وهذا التجاوز وتلك المفارقة وذلك التمرد الإيجابى ، ألصق ما يكون بالمبدع والموهوب، فلا يوجد مبدع يحتمل الواقع، سواء أكان واقعا علمياً أم أدبيا أم تكنولوجيا - على ما هو عِليه، إنما لابد من التمرد من أجل التغيير.

والإبداع يبدأ من الواقع، ومن فهمه، ومن اكتشاف ما فيه من مشكلات وثغرات ومحاولة تقديم حلول إبداعية لها.

والتمرد الإبداعى، ليس تمردًا لذات التمرد، بل هو نضال إبداعى، من أجل الارتفاع فوق السائد والمألوف والراكد إلى حيوية الإبداع، إلى التغير المستمر الذى يعنى الاستقرار المستمر للمجتمع، فالشىء الذى يتحرك ويتغير يظل مستقراً، أما الساكن الآسن فمصيره الأفول، فالعالم كله فى حركة، وعلى الإنسان أن يستجيب لهذه الحركة الكونية بالإبداع.

وقديما قال هيرقليطس: إنك لا تنزل النهر مرتين فإن مياهًا جديدة تجرى من تحتك.

فكل شىء فى حالة من التغيير، فى صيرورة لا تعرف التوقف، وعلى المبدع والموهوب أن يستجيبا لهذه الصيرورة بالإبداع.

رابعًا : خصوبة الخيال

لا إبداع بغير خيال! وقد رأينا كيف أن عالما كبيرًا مثل (أنشتين) يجعل العلم كله ثمرة للخيال الإنسانى.

وطفولة الإنسان ثرية جدًا بالخيال، وكلما كان الخيال ممتلئا وعميقا كان دليلاً على قدرة إبداعية وتصورية كبيرة.

فإذا كان العلم يعتمد على الخيال، الذى هو مفارقة ومجاوزة للواقع إلى المستقبل، فإن الأدب والتصوير والنحت والشعر والقصة كلها أشكال إبداعية تعتمد أساسًا على الخيال المبدع.

وأشد العلوم تجردًا وموضوعية لا تكون إلا عبر الذاتية التى تتصف بالنضج والوعى والإصرار والخيال، ثم إن الخيال عمل من أعمال العقل، فالعقل يتصور ويتخيل، وما من حقيقة علمية إلا وتم تصورها وتخيلها قبل وضعها.

فالخيال يسبق كافة المراحل العلمية، وكلما كان نصيبك من الخيال الخصب كبيرًا، كان حظك من الإبداع كبيرًا أيضا.

والطفل بطبيعته يميل إلى أعمال خياله، وعلى الأسرة أن تطلق لتصوراته العنان لتنطلق، ومعظم تساؤلات الأطفال يكتنفها خيال مبدع وخلاق، والسخرية من خيال الأطفال تولد الإحباط لديهم على نحو يجعلهم يشعرون أن الخيال اغتراب عن الواقع، وتفتيت للطاقة، فى حين أن الخيال هو الذى صنع النظرية النسبية التى ساهمت فى نقل التكنولوجيا إلى ما نحن عليه الآن.

وينبغى التفرقة بين الخيال المرضى والخيال العلمى الخصب:

الأول يأتى كرد فعل للاحباطات وللشعور بالنقص والدونية ويكون أشبه بأحلام يقظة تعويضية، عن شعور بالنقص والدونية.

أما الثانى وهو ما نقصده فهو الخيال المبدع، الذى علينا أن نشجع أطفالنا على استخدامه، على أن يتخيلوا أوضاعا جديدة وعوالم جديدة وسيارات جديدة ومساكن جديدة.. الخ.

خامسًا : المرونة العقلية والنفسية

المرونة معيار الإبداع، والمرونة تعنى تقبل الأفكار رغم تباينها، إنها التسامح الذى يقوم على التباين، والمرونة تعنى انفتاح الذهن، وقدرته على التعامل مع الأفكار دون انغلاق ذهنى وجمود فكرى، أى دون (دوجما) و(الدوجما) ومن حيث هى جمود وانغلاق وثنائية. فى التفكير القطعى – ضد التسامح الذى يعنى حرية التفكير وحرية التأمل.

والشخص (الدوجماطيقى) أى الشخص المغلق على ما يؤمن به من أفكار، يحول أشد الأفكار تفتحًا إلى منظومة مغلقة من الأفكار لا تقبل المناقشة أو الحوار، وهو شخص مؤمن بالفكرة الواحدة والرأى الواحد والتوجه الواحد، والغاية الواحدة، ولا توجد بينه وبين الآخرين نقاط التقاء أو حوار. إنه شخص متعصب، جامد والتعصب والجمود لا يمكن أن يؤديا إلى الإبداع، فالإبداع يحتاج إلى مناخ من الحرية ومن التسامح ومن تقبل الآخر، حتى يستطيع المبدع أن يقدم إبداعاته ويتمكن الموهوب من التعبير عن مواهبه.

وعلى مسار التاريخ الإنسانى، كانت الفترات التى تتسم بالجمود الفكرى والعقائدى هى الفترات التى كان ينحصر فيها الإبداع، كما هو الحال فى العصور الوسطى الأوروبية التى حاكمت جاليليو وأحرقت برونو، أما الفترات اللامعة من تاريخ الإنسان الحضارى، فهى تلك التى كان يسود فيها التسامح، وينطلق فيها العقل بمرونة وانفتاح معبرًا عن الأفكار والحقائق العلمية.

والمرونة النفسية ضرورة لا مناص منها للإبداع، فما هو عقلى إنما هو تعبير عما هو نفسى، فحينما تكون الذات مهيئة للتسامح رغم التباين يكون العقل منفتحا ومنقبا ومبدعًا.

وعند «جيلفورد» يقابل المرونة نفسيًا ومنطقيا عامل التصلب أو الجمود والمرونة تنقسم إلى قسمين: مرونة تكيفية ومرونة تلقائية.

تشير المرونة التكيفية إلى قدرة الشخص على تغيير الوجهة النفسية التى ينظر من خلالها إلى حل مشكلة معينة، وعلى هذا النحو يمكن أن تعتبر الطرف الموجب المقابل للتصلب العقلى ولجمود الذهن. أما المرونة التلقائية Spontaneous Flexibility ، فتشير إلى القدرة على سرعة إنتاج أكبر عدد من الأفكار أزاد موضوع معين، أى أن الشخص الذى يتمتع بمرونة تلقائية يكون بمقدوره إطلاق الكثرة من الأفكار حول موضوع معين.

ويسهم التعليم إلى حد كبير فى ترسيخ الأفكار الواحدة والتوجهات الواحدة والمعانى الواحدة عن طريق نظام الامتحانات الذى يطلب من الطالب إجابة نموذجية واحدة، تحفظ كما هى، وتكتب كما هى، ومثل هذا النظام التعليمى لا يفرز إبداعًا بل يرسخ الجمود العقلى والمعرفى والنفسى.

ومن هنا فإن الإبداع لا يقوم إلا من خلال نسق تعليمى متميز يقوم على التسامح والانفتاح العقلى والنفسى.

سادسًا: الحساسية إزاء المشكلات:

ثمة إجماع بين المشتغلين بالإبداع على أن من أحد جوانب الإبداع الأساسية هى القدرة على التقاط المشكلات التى يموج بها الواقع.

وهـذه المشـكلات قـد تكـون علميـة أو تكنولوجيـة أو فكريـــة، أو اجتماعية، المهم هو فى كيفية إثارة المشكلات، ومحاولة التعامل معها وإيجاد حلول إبداعية لها.

فالمشكلة هـى التـى تثـير الكوامـن الإبداعيـة، وتدفعنـا إلى محـاولات إيجاد حلول غير تقليدية لها أى حلول إبداعية.

ويصبح السؤال هو كيف يمكن تدريـب وتنمية الإحسـاس بالمشـكلات التى تخص الأطفال والكبار أيضا.

ولا يمكن أن يكون هناك إبداع بغير إحساس عميق بالمشـكلات وعلـى هذا فنحن نريد تعليمـا ليـس جـاهزا، بـل تعليمـا يثـير إشـكاليات لـدى الطلاب، ليتعلموا من خلالها أن التقدم رهـين بالتقـاط إشـكاليات الواقـع ومحاولة إيجاد حلول لها.

سابعًا : الدهشة الفعالة

وقد تحدثنا عن هذا العنصر كثيرا ، وبينا أن الدهشة محـور الإبـداع، ومحـور الجـدة، وأن الدهشـة تثـير التسـاؤل، وفـى التسـاؤل بحـث عـن الحقيقة.

ولهذا يكون من الضرورى أن نربى أطفالنا على الدهشة وإثارة التساؤل بغير خوف أو قهر أو إحباط، لأن الإحباط يولـد شـحنات مـن العـدوان، والعدوان غالبا ما يوجه إلى مصدر الإحباط، ومصدر الإحبـاط هـا هنـا هـم الوالدان، والوالدان بالنسبة للطفل هم موضـوع الحـب الأساسـى ومـن ثـم

يتوجه إلى الذات، إلى ذات الطفل، فى صورة مشاعر ذنب وخزى وخجل، وتترسخ هذه المشاعر فى ذات الطفل، فكلماهمّ بالتساؤل شعر بالخزى والخجل والذنب، فيؤثر الصمت والسكون، ويغمض عقله عن الدهشة أمام ما يثير التساؤل.

وقديما قالوا: إن الدهشة أم المعارف جميعا، فكيف يمكن تغيير واقع علمى بغير دهشة وبغير تساؤل؟

إن المسئول الأول عن عدم استثارة الدهشة والتساؤل هو النظام الذى يقوم على الحفظ والتلقين والتذكر، فلماذا إذن نندهش. ولماذا نسأل؟ وكل شىء جاهز أمامنا ولا يحتاج إلا لحفظه واسترجاعه وقت الامتحان. ولهذا يكون لزاماً على المدرسة أن تشجع التلاميذ على إثارة التساؤلات وعلى البحث عن الجديد، وعلى الدهشة، كلما بدا أن هناك أمراً غريبا أمام الطفل سواء من الكتب أو المدرسين أو المدرسة نفسها، فالأطفال هم المستقبل الذى ينبغى أن يتولاه جيل يتمتع بالجرأة والجسارة والقدرة على التساؤل بغير خوف أو قهر أو إحباط.

ثامنا : تحمل الإحباط

تكمن السوية فى القدرة على تحمل الإحباط، على التعلم من الفشل، على الإصرار على النجاح، وعلى بلوغ الأهداف.

وقد قال سارتر فى مسرحية الذباب - إن حياة الإنسان تبدأ من الشاطئ الآخر من اليأس.

ومعنى هذه العبارة أن الفشل مولد للنجاح، وأن الإحباط لا يكون إحباطا إلا إذا نال من تقدير الإنسان لذاته، والإنسان لا يبلغ حد تقدير ذاته وتحقيقها وتوكيدها إلا من خلال حسن استثمار ما لديه من قدرات وإمكانات عن طريق العمل الجاد والعطاء المخلص.

فثمة نوع من الإبداع يطلق عليه تعبير إبداعية الذات، أو بعبارة أخرى الإبداع كأسلوب لتحقيق الفرد لذاته.

وإذا استسلم الإنسان لإحباطات الحياة، فإنها سوف تولد شحنات عدوانية لديه، تتوجه إما إلى الذات في صورة طقوس تعذيبية أو إلى الآخرين، وفي نهاية المطاف يتحول الشخص إلى شخص محاصر باحباطاته، بيأسه، بقلة حيلته، بعوارضه المرضية، ومن ثم لا يستطيع أن يبدع، على الرغم من أن الناس جميعا مبدعون والاختلاف بينهم يكمن في درجة الإبداع والإصرار عليه، والعلو فوق التناقضات، وتحمل الإحباطات والصبر والإصرار على العلم والمعرفة.

الفهرس

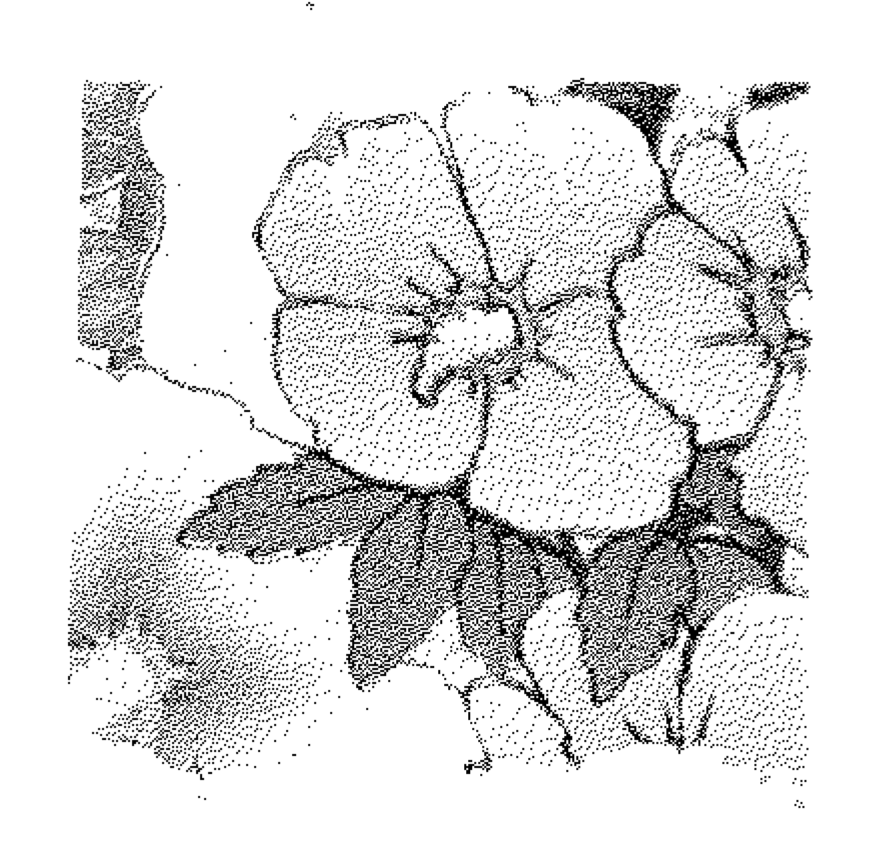
العدد القادم	التوازن النفسى دكتور / يسرى عبد المحسن

رقم الإيداع	٢٠٠٠/١٦٤٤٦	
الترقيم الدولى	977-02-6084-3	ISBN

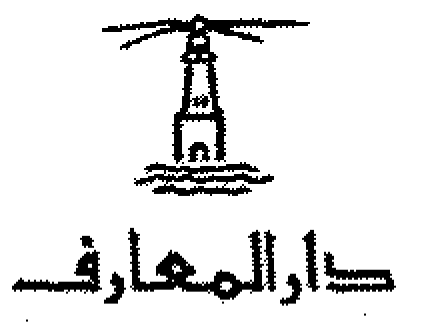
١/٢٠٠٠/٤٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

يدور هذا الكتاب حول الإبداع بوصفه أعدل الأشياء قسمةً بين البشر ، فالناس يولدون وهم مزودون بقدرات عقلية متميزة، وبإمكانات تتواصل بغير انتهاء ، وبمواهب شتى ، وبخيال خصب . غير أن هذه القدرات وتلك المواهب وهذه الإمكانات تظل خبيئة فى النفس وتحتاج لمن يخرجها من حيز الكمون إلى حيز التحقق الخلاق فى الواقع .







دار المعارف
٤٠٧١٧٦/٠١

